وداعا جدي كنت أحبك



نورما فوكس مايزر

هنري زغيب

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في ٣٠/ صفر / ١٤٤٤ هـ
٢٦/ ٩ / ٢٠٢٢ م

م. سرمد حاتم شكر

وداعا جدي كنت أحبك

نورما فوكس مايزر

هنري زغيب

وداعا جدي كنت أحبك
نورما فوكس مايزر
ترجمة هنري زغيب
الطبعة العربية الاولى ١٩٨٩

الناشر دار ثقافة الاطفال - العراق - بغداد
ص.ب ٨٠٤١

سلسلة مكتبتنا
تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الاطفال
المدير العام : فاروق سلوم
سكرتير التحرير: فاروق يوسف



١

«جيني» في مطعم، تقدم القهوة وقطع الخبز. تنهرها أمها محاطة بجمع مميز:

ـ القهوة باردة، والخبز بائت.

تهرع جيني رافعة كل شيء عن الطاولة، سائلة بمجازفة:

ـ هل لي بدراقنة؟

تجيبها أمها بلهجة قاسية:

ـ وهل تستحقين؟

حطت على كتف «جيني» يد مهدئة، وتناهى صوت:

ـ لا تخافي. أنا هنا.

التفتت «جيني» ففوجئت مذعورة: إنه هو. جدها الحبيب. يلبس سروالا أبيض وسترة بيضاء، وجبينه مملوء ضمادات. صرخت له برعب:

ـ إنزع هذه كلها . . بسرعة .

واستيقظت «جيني» من نومها خائفة ، تتردد في وعيها بقايا من هذا الحلم المزعج . كان قلبها يخفق بضربات قوية ، وملء فمها طعم لاذع سرعان ما زال حين تأملت الغرفة التي تتقاسمها مع شقيقتيها النائمتين مطبقتي القبضات . كانت الصغرى مكومة كديسم ، و «غيل» مدسوسة الرأس تحت الغطاء و مكشوفة القدمين .

إنه صباح الخميس . الساعة السادسة وعشر دقائق . المطر يزقزق على زجاج النافذة قرب سرير جيني . في الشارع سيارة تهدر بازعاج في البيت ، الجميع نائمون .

الجميع ؟ كلا . أرهفت السمع ، فتناهت اليها حركة من جدها في الطابق الأسفل . أحبت أن تناديه . وسرت فيها رعشة فرح ، فكشفت غطاء السرير . وبدلا من أن تقفز منه كجدي تزحلقت بهدوء على الشرشف الأبيض الصقع .

لبست سروالا من الجينز ، وأخذت تفتح درجا من الخزانة ، فصر . تجمدت مقطعة الأنفاس . يجب أن تلبس من دون أن توقظ «غيل» وأن تنسل من البيت من دون أن تنتبه أمها ، وأن تنزل تلقي على جدها تحية الصباح . حاولت فتح الدرج مجددا ، فانفتح بما يكفيها لتمد يدها إليه ، فتناولت أول صدرية صوف طالتها أصابعها : كنزة خضراء كانت تلبسها قبلها «غيل» . لم تكن تحبها ، لكنها لبستها ، وحملت خفيها وراحت تعبر الغرفة على رؤوس أصابعها ، كي لا تطقطق خشبات الارض تحت قدميها .

فيما هي تخرج ، غطت الصغرى «إيتيل» ، فتململت ورفت بجفنيها . وأطلقت «غيل» وهي غافية ، زفرة عميقة . تجمدت جيني في مكانها : إذا استيقظت شقيقتها ، أفسدت عليها كل محاولتها ، لأنها ستصرخ : «الآن في هذه الساعة» ، وتقفز في سريرها كسمكة الشبوط .



أدارت جيني قبضة الباب وخرجت الى الممشى، مارة على رؤوس أصابعها حتى الحمام. كيف لها أن تستعمل الماء من غير صوت؟ فتحت الحنفية، فسالت في كفها قطرات تكفيها لغسل وجهها وتنظيف أسنانها. تطلعت في المرآة: إنها فعلا تشبه سيدة من سيدات (موديغلياني) كما شبهتها السيدة (سبنسر) أستاذة الرياضيات في معهد الاتحاد. كان الجميع يتهافتون للمحافظة على أولاد آل سبنسر. صحيح أنهم كانوا كثيري التدلل (أحدهم، يوما، عض جيني) لكن والديهم كانا يغدقان الهبات المناسبة على الناس. وكانا يدفعان جيدا، الى جانب القسط المدرسي.

قبل أسابيع من ذلك، سألت السيدة سبنسر اذا كانت جيني رأت، مرة، لوحات وجوه بريشة موديغلياني. نفت جيني برأسها وهي تنتزع من (كيم) قلما كادت تزجه لها في فمها. وأضافت السيدة سبنسر:

ـ بهاتين العينين الكبيرتين اللتين تسطعان في وجهك، وهذا الذقن النحيف، كان يمكنك أن تكوني نموذجا حيا رائعا له.

وفي الأيام اللاحقة، راحت جيني ـ بتأثير من هذا الكلام حول جمالها ـ تشعر بأنها خفيفة كفراشة. ويوم السبت اصطحبت صديقتها (رودا) الى المكتبة البلدية العامة، حيث بحثتا عن كتاب حول الفن الحديث، فوجدتا كتابا كبيرا مصورا، تصفحتاه بلهفة عصبية، وأصيبتا بخيبة كبرى: وجدتا لموديغلياني رسوم وجوه مشوهة، وخاصة في العيون. وعلقت رودا على ذلك بأن جميع اللواتي رسم موديغلياني وجوههن، كن صابات بوجع أضراس مزمن.

عبرت هذه الافكار سريعة في رأس جيني، فيما تفتح الباب بحذاقة، خفاها في يدها، تتنقل من دون حس، وإذ.. فوجئت بأمها أمامها، في قميص نومها الأحمر، تسد لها الطريق وتبادرها:

ـ كأنني سمعت سفسقة مياه.. بم تتعثلين في هذه الساعة المبكرة؟

ـ . . استيقظت . . فنهضت . . هذا كل ما في الأمر . لكنني لم أحدث أية ضجة .

ـ ستوقظين كل من في البيت. عودي الى سريرك ونامي من جديد .

ـ ولكن يا أمي . . لم يعد بي نعاس .

ـ أقول لك عودي الى النوم . ما هذه ساعة النهوض بعد .

ـ لكن جدي استيقظ ونهض . كنت ذاهبة أقول له صباح الخير .

ـ وهذا الآخر . . ألا يكفيك ما تقضينه معه طوال الوقت؟

ـ ولكن ، يا أمي . .

ـ كلما احتجت اليك أبحث عنك ، تكونين عنده . أبوك أيضا لاحظ ذلك . لست أدري ماذا تفعلان كل هذا الوقت .

ـ نتحدث . . نلعب بالورق . . و . .

وبدرت من جيني حركة وهن ، فلم تكمل . المهم ، عندها ، ليس ماذا تفعل مع جدها ، بل أن تكون معه .

ـ ألا ترين أن عليك تخصيص وقت أكثر لعائلتك؟

ـ وجدي ، أليس فردا من هذه العائلة؟

ـ لا تتحامقي . تفهمين جيدا ما أعنيه بكلامي . فلماذا تجادلين في مثل هذه الساعة المبكرة؟ عودي فورا الى سريرك .

قالت أمها ذلك ، ودفعت بها الى الداخل . فارتدت جيني محمرة الوجه من الغضب ، تعض شفتيها من القهر ، وتترنح في الغرفة . ثم اندست في فراشها .

في الساعة السابعة إلا ربعا ، استيقظت (إيتيل) ونهضت واقفة وراء قضبان سرسرها ، وهي تهز شقيقتيها . تنحنح أبوها في الحمام . استيقظت غيل) ، وخرج من تحت الغطاء رأسها المملوء بمجاعد الشعر الزهرية ، فالتفتت صوب المنبه وسألت بصوت منخفض :

- كم الساعة؟
ثم استقامت في سريرها، وأخذت تنزع من شعرها المجاعد.

للمـرة الثـانيـة، ذلـك الصبـاح، كشفت (جيني) الغطـاء عنهـا، فتطلعت اليها (غيل) بعينين محملقتين:
- ما هذا؟ هل نمت بكامل ثيابك؟ ما أشد حماقتك.
- لا تتدخلي في ما لا يعنيك.
ونزعت جيني صدرية الصوف الخضراء بحركة غاضبة، وهي تردد:
- وهل يمكن الذهاب الى المدرسة بصدرية كهذه؟؟



٢

استيقظ كارل بينوبير في وقته المعتاد. شعر بألم في جسمه كله، وبأنه متيبس كحطبة. فأطلق زفرة «يا إلهي»، واستوى في سريره بصرخة ألم. دفع الغطاء بيدين معقدتي المفاصل. كان الهواء في الغرفة ينضح بالسخام (سواد الدخان). طوال الليل كانت نافذته مفتوحة، مما يؤذي داءه: التهاب المفاصل. انحنى محاولا لمس أصابع رجليه. كان ينام بلباسه الداخلي: سروال عتيق وقماط طويل مرخيين. وفيما هو ينتزل من السرير، زفر مجددا: «يا رب». كان طويلا وهزيلا على سقم، وأظافره مصفرة وقاسية كما قرون.

الساعة السادسة. المطر غزير. ليس من يستيقظ في مثل هذه الساعة. وليس ما يحوجه الى ذلك: فلا رئيس ينتظره، أو رقيب، أو بقر للحلب. لماذا لا ينام حتى الثامنة او العاشرة؟ او حتى الظهر؟ ومن

يهتم لذلك؟ لن يغير هذا في دورة الزمن. فالعالم يكمل مساره به او من دونه. أحس باشفاق على مصيره التاعس، حين وقع نظره على كيس نسيته (جيني) ليلة البارحة. غريب كم تنسى هذه الفتاة أغراضا لها: كتبا، اوراقا، مشطا، قفازين، وحتى حذاءها أحيانا. انحنى (كارل) يلم الكيس ويضعه على المنضدة. وفكر: كفاه كآبة. هو أيضا عنده دافع لينهض. عنده جيني. صغيرته جيني.

تثاءب وهو يكلا، من دون حماس، شعيرات صدره الهزيلة. وحرك يديه ليجري الدم في أصابعه، فيما يروح ويجيء حافيا في الغرفة. كانت هذه مجلدة، زجاج نافذتها مغشى بالبخار من شدة الرطوبة، وجدرانها تنضح. هذا هو القبو الذي جهزه له ابنه.

لبس صدرية صوفية، وتوجه الى الحمام. ظل دقائق واقفا أمام الحوض. جميع وظائف الجسم تتباطأ مع تقدم السن. أرعبه أن يبلغ الثالثة والثمانين، وأن تتشوه يداه بداء المفاصل، ويضيق تنفسه وتتسع مجرفة ذكرياته.

في مطبخه الصغير، اغتسل بالماء البارد، حتى كاد ينقطع نفسه. كان يمكنه أن يستعمل الماء الفاتر، لكنه اعتاد أن يستحم بالبارد. لذا أكمل. إنها قضية مبدأ.

ارتدى لباسه. بدا هزيلا جدا في سرواله. لم يكن يوما بدينا، لكنه لم يمر في فترة من عمره ان كان في غضونها مجرد لحم مقدد على عظم. بل كان، على العكس، فخورا بعضلاته وقوته، وكانت جميع الظروف تؤاتيه ليذهل دائما زوجته، حتى أن الناس كانوا يرددون: «كارل بينوبير. رجل وسيم». ولم تكن طلته تكذبهم، فهو كان فعلا قوي البنية، ذكيا، وقادرا.

صفرت المغلاة، فسكب الماء في كوب، ووضع فيه كيسا صغيرا من الشاي. ثم أخذ حبتين من الأسبيرين راح يمصهما وهو واقف

بالقرب من النافذة. تناول الشراب جرعة واحدة وهو يغلي فأحرق حلقه. هذه عادته دائما: أن يجرع القهوة والشاي والحساء في حالة غليان. وهذا ما كان يغيظ زوجته (مادلين) التي كانت تصرخ له بلهجة عيية: «ستحرق حلقومك». وهو لا يلتفت، فتستطرد: «كارل، هل تسمعني»؟ فكان، ليغيظها أكثر، يشرب السائل أسرع، محدثا غرغرة بين شفتيه، حتى باتت، كي تتسلى، تسكب له قهوة فاترة، وحساء ساخنا قليلا، وشايا يمكنه أن يغسل به وجهه.

ابتسم كارل لهذه الذكريات، فيما راحت تمر في مخيلته صور، بعضها ضبابي، كصورة أبيه، وبعضها الآخر شديد الوضوح. تذكر حين كان غلاما، في قطار ذات ليلة، ملتصقا بأمه. وتذكر قولها له: «كارل، إجلس مستويا، ستجعد لي ثيابي». ومع هذا، تركته يغفو على كتفها. كانا ذاهبين لتمضية العطلة في مزرعة جده. تلك المزرعة.. أية جنة صغيرة. حقول شاسعة، بقرات حلوب، معزى ودجاجات رومية على الاغصان. كان يلعب على هواه، يتسلق الأشجار، ينام على العشب. وما يزال حتى اليوم يتذكر لسعات البعوض على جنبيه، وحروق الشمس على جلده. كما يذكر طعم تفاحات ممتلئة العصارة، وقشدة سميكة تغطي قوالب الحلوى، وجرعات حليب كان جده يتيحها له بالمغرفة تقريبا من ضرع البقرة مباشرة. كل ذلك، مر في باله، كأنه حدث أمس.

في الخارج. المطر ما زال ينهمر، وكارل يتابع حركات رتيبة لتراقص المساحات على زجاج السيارات المتلازة. تناول قطعة من الخبز البائت، وأعاد سكب بعض الشاي في الكوب. لا يأكل كثيرا عند الصباح، راح يغمس الخبز في الشاي الساخن ويمضغه من دون كثير قابلية. وأخذ يقارن بين هذا الخبز. وذاك الذي في زمن شبابه كان في الأقل ذا مذاق. ثم راح يتذكر تلك القصاع التي كان يأكلها في

صباه. وانهمرت عليه من جديد صور وذكريات. يوم سار كيلو مترات طويلة في الشمس المحرقة، وهو يتصبب عرقا. وذكريات حب وذكريات موت - تذكر أنه دفن ثلاثة أولاد قبل ولادة فرنك.

فجأة، علا ضجيج في الطابق الأعلى. ففهم أن الجميع استيقظوا في البيت، وستبدأ الجلبة المعتادة. بكاء الصغيرة ممتزج بصراخ وضحك. وهو في جحره المظلم، لا يزعج أحدا، ولا يحدث جلبة. حتى عند ارتشافه الشاي. كان يتأمل الارصفة اللماعة، وأرجل المارة عليها، مبللة بمياه المطر.



ألقى نظرة على المنبه . مر الوقت سريعا . وهذه من خصائص الحلم في اليقظة . حان وقت وصول جيني ، ولا يجوز أن تفاجئه بحلم كهذا . راح يغسل كوب الشاي بالماء الساخن ، ويضع يديه تحت الحنفية لتدفئتهما، مستفيدا من حرارة المياه . سمع طرقا على الباب . سارع الى تنشيف يديه وتناول جريدة عتيقة صفراء من كومة مجلات ، وجلس الى طاولته عند النافذة . ثم صرخ :

ـ أدخلي . .

ودخلت جيني بمرح :

ـ صباح الخير جدي . إذن عرفت بأنني أنا الآتية .

كانت تلبس سروالا شطرنجيا و مشمعا واقيا للمطر أزرق ، وعلى زاوية فمها بقايا من معجون الأسنان ، فتظاهر بأنه لم ير ذلك ، وهدر :

ـ تأخرت هذا الصباح .

ـ بل استيقظت باكرا ، لكن أمي لم تسمح لي بالنزول قبل الآن .

وانحنت فوق كتفه تستطلع ما يقرأه ، فشهقت :

ـ الى أي عام تعود هذه الجريدة؟ أنظر : إنه عام ولادتي .

ـ . . وعام وفاة جدتك .

فألصقت جيني خدها بخده وقالت مطيبة خاطره .

ـ أرجوك ، جدي ، لا تفكر بذلك الآن ، فهو يحزنك . ولا أريدك تحزن .

فجأة ، أحس كارل بأنه استعاد نشاطه ، وأن باستطاعته البقاء ساعات هكذا : خده على خد حفيدته الطري . بعد لحظات ، قالت جيني :

ـ رأيت كابوسا رهيبا . لذلك حزنت وأردت المجيء اليك باكرا قبل الآن . كنت أنت في هذا الحلم . وكانت أمي . كان مرعبا . خلتك ستتخلى عني ، وجمحت بي رغبة للبكاء .

قلب كارل بينوبير صفحة في جريدته، وأجاب:

- أين تريدينني أن أبتعد عنك؟ وهل يمكن أن أغادرك اليوم بعد كل سنواتنا معا؟ كان من المصادفات أن تتزامن ولادة جيني ووفاة جدتها (فرنس) . وكان، عامئذ، غير مرغوب في ولادتها، بعد ثلاثة أطفال لكنته (أوريليا) ولم يكن للبكر (فنس)، سوى ست سنوات. لذا، لم تكن لولادة جيني فرحة غير عادية.

في تلك الحقبة، جاء كارل يسكن مع ابنه الذي جهز له هذه الشقة الصغيرة تحت الارض. كان ضائعا بعد غياب فرنس، وأحيانا كان يشعر أن عاصفة ستجتاحه ككومة قش. وأزهقه أن يعيش في هذا الكهف المظلم، وحيدا أغلب الأحيان، كي لا يزعج أولاده بوجوده بينهم. فهو، مثل جيني، غير محبوب. وذات يوم، وضعها في عربتها الصغيرة، وخرج بها في نزهتهما الاولى معا، فسرت اوريليا بهذه المبادرة، مما دفعه الى تكرار النزهات. وحين بدأت تمشي، أخذ يرافقها ممسكا بيدها، ثم، تدريجا، باتا لا يفترقان. لم يشعر يوما أنه قريب من طفل، بهذه الحرارة حتى حين كان ابنه طفلا. ولم يسبق له مطلقا أن نزه طفلا بعربته الصغيرة، أو أن هدر ساعات ماشيا، تاركا يده في يد طفل ناعمة. وهكذا، مع الايام، غدت جيني كل عالمه، وتعلق بها حتى الجنون.

تنبه فجأة الى جيني ممسكة بالجريدة، فانتزعها منها منتهرا:

- ماذا تنتظرين؟ ستصلين متأخرة الى المدرسة. تحركي.

وخرجت مسرعة من الغرفة، وهي تخترق الباب قائلة:

- الى اللقاء، جدي، إحفظ لي الجريدة، فاقرأ فيها أخبار هاتيك الأيام .

وعمد كارل الى تمليس الجريدة الصفراء أمامه.

هاتيك الأيام..

ثلاث عشرة سنة مرت سريعة.. وتمنى الحصول على صحف تعود الى خمسين أوستين، بل وثمانين سنة الى الوراء، حتى ولولم تكن هاتيك الايام هنيئة في ذكرياته.

سوى أنه اكتفى بالسنوات التي تفصله عن موت زوجته. كان يقرأ المآسي وقصص الكوارث، فتخف وطأة حزنه، لاطلاعه على أخبار الفواجع والحروب والاعاصير والسائقين السكارى والمجانين حملة السلاح. جميعهم كانوا يحتلون الصفحات الاولى من الصحف يوميا.

الايام تمضي. والعالم ما زال هنا. وهو أيضا ما زال هنا.

بلى.. حتى هو، ما زال هنا.



٣

المطر غزير، وجيني تحتذي خطوات شقيقتها بميوعة. كل ما في الشارع تألفه: المحال، الجيران.. لمحت في واجهة البقال أزهارا اصطناعية ضجرة قرب هرم من المعلبات. ورأت جناح (آل بالدفان) ينبسط أمامه مرآب أحمر السقف يغطي سيارتين. والتفتت الى منزل (آل رمبو) فتخيلتهم داخل الستائر يبكون ولدهم (نيكولا) المعاق الذي قبل أيام قفز أمام شاحنة فدهسته.

زعق صوت شقيقتها غيل:

- جيني.. ما لك تتباطأين هكذا؟ أسرعي خطاك.

وكانت تترنح حتى كادت تصطدم بكلب جعيد. فصرخت: «سأوافيك» لتسمعها «غيل» وسط ضجيج الشارع. فالسيارات تسير متلازة في خط طويل. وصرخت لها مجددا: «سيري، ولا تهتمي بي».

كان يمكنها موافاة غيل بقفزتين. ولكن لم؟ للانفساح في مشاحنات جديدة؟ ليس بينها وبين شقيقتها أي شبه. جيني سمراء، كستنائية العينين، ممتلئة حيوية، أشد نحولا من شقيقتها التي على بعض بدانة، شقراء، زرقاوية العينين، ذات مزاج كسول. وتعد أن من واجبها، كشقيقة كبرى، السهر على شقيقتها الوسطى في تنظيف أسنانها دوريا، وتبديل ملابسها الداخلية، ونومها في ساعات مبكرة. سوى أن هذا التصرف الرقابي كان يثير غضب جيني. ففي طفولتهما، كانت الشقيقتان تتضاربان بقوة، وها هما في صباهما تتشاجران باستمرار.

ذات يوم، رسمت غيل خطا حول سرير جيني، صارخة في وجهها:

ـ هذه، أيتها الشيطانة الصغيرة، حدودك. إياك أن تعبريها من دون إذني. فصعقت جيني وراحت تصفق بيديها غضبا، وتقفز كطير جريح، مجيبة بسخرية:

ـ وكيف تريدينني أن أخرج من الغرفة؟ أأطير؟

ـ أسكتي. إخرسي..

ـ وتريدين إخراسي فوق كل هذا؟

وازدادت جيني وقفزاتها الغاضبة، فزجرتها غيل:

ـ كفى..

ـ كفى ماذا؟ كفى لماذا؟

واهتاجت جيني أكثر، فاستدعت غيل أمها:

ـ أمي.. يا.. أمي..

فأجابت الوالدة ترعد من الداخل:

ـ جيني.. ألن ننتهي من هذه الهزلة؟

لكن جيني لم تكف عن المضي في الغليان والقفز والصراخ، حتى دخلت أمها الغرفة كالعاصفة وانهالت عليها بصفعة صاعقة، جعلت

جيني تحمي خدها بيدها موضحة :

- هذا ليس عدلا . ما أنا البادئة .

- إخرسي ولا تزيدي كلمة واحدة . وإلا تنالين صفعة أخرى .

هكـذا الامـر دائما . وكلما تتذكر جيني ذلك ، تثور من قهر ، ويغتلي صدرها من غضب على شقيقتها . كانت غيل قد ابلغت زاوية الشارع ، فاختفت وراءهـا . ومـا أن أحست جيني بأنهـا صارت وحـدهـا ، حتى هرعت الى ملاقاة صديقتها (رودا) عند زاوية شارع الخلالين . وعلت فرحة الصديقتين :

- ها . . جيني بينوير .

- ها . . رودا ريفرز .

- غير معقول .

- كأنني في حلم .

وبعد تبادل التحيات التقليدية ، قالت رودا :

- كيف نعرف أن فيلا تمكن من دخول البراد؟

- عدت الى المزاح من جديد .

- من الآثار التي تركها على الزبدة . هل كنت تعرفينها هذه؟ إسمعي هذه الأخرى : ما الفرق بين فيل وغرير يلبس نظارات بنفسجية؟

- وكيف لي أن أعرف؟

- الفيل يلبس نظارات حمراء .

وارتـاحت جيني الى ضحكة طويلة أرضت رودا ، صديقتها النحيلة ذات الشعر المشبوك التي استطردت :

- ما الجديد منذ لقائنا أمس؟

- فرنكي نال ملاحظـة قاسيـة من أبي الـذي نهره بأنه ، لهلوساته في الركض الدائم ، يشبه أرنبا فاقدا عقله .

- ولكن أباك يتخذ موقفا آخر إذا أصبح فرنكي بطلا أولمبيا .

ـ لا أمل في ذلك. فشقيقي لا يهتم للارقام القياسية.

سوى أن أباهـا قال: يومـا أنه «لو يشترك في مباريات رياضية أو في منـافسـات يغنم منهـا ولـو مدالية، لكنت أفهم هوسه بالركض». ولكن فرنكي يركض دائما وحده، لا طمعا بجائزة أو ربح.

ـ تعرفين أن شقيقك الرياضي يعجبني فيه طبعه؟

ـ صحيح؟ هذا خبر سار سأنقله اليه.

ـ إياك. امنعك من ذلك.

ـ لماذا؟ هذا يرفع من معنوياته.

ـ أبدا. إياك أن تفعلي ذلك.



ـ مؤسف. أنـا واثقـة أن خبـزا كهـذا يحمسـه على السير في الخط الذي يريده له والدي.

ـ الى هذه الدرجة؟

ـ طبعا. لو كنت ترينه حين يأخذ أبي ينهره..

وتـذكـرت جيني أنهـا ذات يوم قرأت مجمـوعـة قصصيـة بعنـوان: «العدّاء المنفـرد»، تتحـدث القصة الأولى منها عن عداء، لا شبه بينه وبين شقيقها، بل هو كان إنكليزيا ومنفيا إلى إصلاحية بتهمة السرقة. إلا أن مقطعـا لفت انتبـاه جيني، جاء فيـه: «العـدو المنفـرد، ريـاضة رائعة. ليس من يثيرك أو يعطيك أوامر». قرأت جيني مرارا هذه العبارة، متسائلة إن لم يكن شقيقها يحب الركض المنفرد لهذا السبب. أهدته الكتاب، لكنها لم تحصل على مفتاح السر، لأن فرنكي أخذ الكتاب ودسه في أسفل الخزانة من دون أن يلقي عليه أقل نظرة.

يبـدو أن لا سبيـل الى تفـاهم دائم بين أفـراد هذه العـائلة. مع أن العـلاقات الثنائية (بين والدها وفرنكي، وبينها وبين غيل، وبينها وبين أمها) كان يمكن أن تكون جيدة وحميمة أكثر.

صحيح أن أباها لم يكن شديد الحنان الفائض معها، لكن عصبيته كانت أقـل وطأة من التي تسـود أحيـانا بينها وبين أمها، منذ وعت ذلك وهي ابنـة احـدى عشـرة، وبدأت تثور لهذه الظاهرة، ولو هي تعلم كم تضمـر لهـا أمهـا من حب كثيـر. وغير مرة ثارت ثائرتها، فكلفتها عقوبة الحجز في غرفتها ساعات طويلة. لذا راحت تجهد في أن تكون هادئة ومطيعـة، فوق طاقـة أعصابها أحيانا. واكتشفت اتجاه تصرفاتها صوب الغليان السريع. ولم كل هذا الجهد في التأقلم؟ لها طبعها الخاص، ولأمها مزاجها الخاص، وهما متعارضتان. لا شيء أكثر من ذلك.

فجأة، تنبهت جيني الى رودا تهزها من يدها:

ـ ما بك؟ هل تحلمين في النهـار؟ مسـاء الجمعـة، تنامين عندي،

كما اتفقنا؟

ـ اذا وافق والداي، نعم.

ـ هل صحيح ان شقيقك فنس سيزوركم قريبا؟

كان السؤال لافتا من رودا. فهي، كابنة وحيدة، يلفتها أدق التفاصيل في اسرة بينوبير.

أجابت جيني:

ـ ربما، لمناسبة عيد ميلاده. إلا إذا كان مدعوا لدى أحد رفاقه في الجامعة، كما في السنة الماضية.

فنس، منذ الخامسة عشرة، أصدقاؤه كثر. كان في الثانوية حين تم انتخابه «أكثر التلاميذ وسامة بين رفاق صفه». وكثيرا ما كانت جيني تفكر أنه، لو لم يكن شقيقها، لكان صديقها. فنظرته تشبه ما في عيني عمر الشريف، وشارباه الطاران يزيدان من الشبه بينهما.

وختمت رودا:

ـ أعلميني حين يأتي. سأذهب لأسلم عليه.



٤

السابعة تماما. موعد عشاء آل بينوبير. وصلت جيني الأخيرة، متأخرة لاهثة. لم يكن والدها يتسامح في أمور الوقت الدقيق، فزجرها بنظرة قاسية، وأمرها:

ـ رددي صلاة المائدة.

ـ «شكرا يا رب على هذا الطعام الذي تتيحه لأسرة بينوبير. آمين».

وإذ انتهت من الصلاة، مضمومة اليدين، أردفت وهي تنظر الى شقيقتها الكبرى:

ـ أتضور جوعا. غيل، أعطني الصحن.

ـ قولي: أعطني الصحن من فضلك.

ـ أعطني الصحن.

ـ لا. الصحن لأمي أولا.

وحسم الوالد الجدل بين الشقيقتين، فيما هو يعقد الفوطة على رقبته، ويسأل ولده:

- فرنكي، ما الجديد في المعهد اليوم؟

- لا جديد يذكر.

- لا جديد؟ كيف ذلك؟

- يعني .. لا جديد.

- أو تسخر مني؟ ألم تذهب اليوم الى الكلية؟

ارتبك فرنكي فيما يمضغ الخبز ويهتز على كرسيه، فأردف أبوه غاضبا:

- هذا كل ما تجده جوابا لي؟

ازداد ارتباك فرنكي وأحنى رأسه خجلا. رمقته جيني بنظرة تأييد: هي أيضا تزعجها هذه الأسئلة. لذلك أنقذته بالمبادرة الى الجواب:

- جمعونا في الملعب المسقوف، وجاء مندوب العمدة يلقي علينا محاضرة حول حملة النظافة التي ستبدأ الأسبوع المقبل. كان الموضوع مفيدا. أليس كذلك، فرنكي؟

فاجأته بالسؤال فيما لكزته سرا برجله من تحت الطاولة. فقطب الوالد جبينه سائلا:

- ألم تكن في الاجتماع؟

وعلى إشارة إيجابية من ولده، استطرد الوالد:

- وماذا قال لكم تماما هذا المندوب؟

ارتبك فرنكي مجددا، وتأتأ:

- قال .. قال .. نسيت ..

- نسيت؟ عظيم. أنا أموت يوميا من التعب ر لأضمن لك أن تواصل دروسك، وهذا هو الجني؟ إذن أنت لا تعي أهمية الفرصة المتاحة لك. حين أفكر أنني ابتدأت من العدم .. هل تتصور أنني بلغت

منصب نائب مدير (سوبر ماركت) وأنا مكتوف اليدين؟

كانت العيون جميعها مصوبة على فرنكي المسكين. فعلاماته المدرسية المتدنية تسبب له دائما توبيخات والديه. إنقاذا لموقف الصبي، سأله جده العجوز:

- قل لي، يا حبيبي، في أي صف أنت هذا العام؟

- في الثانوي الأول يا جدي.

وأحنى الصبي رأسه بعد جوابه بصوت خافت، فعلق والده بصوت قاس:

- إذا بقي على هذا المنوال، سيعيد صفه في العام المقبل ايضا.

- أنا لم أتجاوز الشهادة الابتدائية.

امتعض السيد بينويير قليلا من جواب والده العجوز، فعلق:

- هذا يا أبي كان في زمانكم الغابر. اليوم، على التلميذ الا يكتفي حتى بالدروس العالية الجامعية. ليست سهلة، بالطبع، لكنها ليست مستحيلة لمن لديه إرادة الوصول. والدليل: ابني فنس.

تمتم فرنكي:

- فنس.. فنس.. دائما فنس.

فصرخ السيد بينويير:

- طبعا فنس. لماذا لا تتشبه به؟

وعاد العجوز الى الاشتراك في الحديث برصانة:

- لو كنا بقينا في المزرعة، لكان الصبي انصرف الى العمل بدلا من هدر وقته بين الكتب.

فتمتمت السيدة بينويير ببعض امتعاض:

- المزرعة.. لم يكن ينقص الا هذا.

وكان معها ملعقة ملأى بمسحوق طعام للاطفال، فأفرغتها في فم الصغيرة إيتيل وأردفت:

ـ على كل حال، كان على المزرعة أن تزول، منذ وقت. أنا واثقة أن فرنكي يحصل علامات جيدة لو هو يركز اهتمامه على دروسه. وإنه قادر لو أراد.

لكن الجد العجوز أكمل:

ـ ستة أجيال من آل بينويير تعاقبت على المزرعة. جد جدي كان أول من قطع أشجارها، واستصلح أراضيها.

فقاطعه ابنه:

ـ لا داع لتكرار ذلك يا أبي، بتنا نعرفه جيدا.

وأردفت غيل:

ـ صحيح يا جدي، بتنا نعرف قصتك غيبا. وتدخلت جيني غاضبة:

ـ يعني؟

فأجابت غيل بعصبية وهي تنظر الى أعلى:

ـ يعني أن لا فائدة من تكرارها مجددا.

سوى أن العجوز أكمل بهدوء:

ـ وأكمل أحفاد جدي استصلاح الاراضي هكتارات بعد هكتارات. جدي مات في المزرعة. أبي غادرها وجاء يسكن المدينة. فكان لابد من تأجيرها. وهكذا تعاقب عليها المستأجرون المستثمرون حتى غادرها اخرهم منذ عشر سنوات، ومن يومها..

قاطعه ابنه السيد بينويير:

ـ .. من يومها وهي تتهدم تدريجا، وفوق ذلك ندفع الضرائب المترتبة عليها كل عام. لو نبيعها يا أبي، يكون مردودها عليك مفيدا.

ـ أبيعها؟؟ ابدا. أرض صالحة كهذه، أبيعها؟؟ سأعود اليها ذات يوم. أنا واثق أنها ما تزال خصبة للانتاج اذا استصلحناها من جديد.

ـ أبدا يا أبي، أرجوك. لن تدوس تلك المزرعة مطلقا. لا تحلم

بذلــك. منــذ سنــوات طويلة وأنــا أسمعـك تردد أنـك تود العــودة الى الارض، ولم أرك يوما تحركت من هنا.

- قضيت يا بني في هذه المـزرعـة أجمـل أيـام حيـاتي. كنا نذهب بالقطــار اليهــا مع أمي كل صيف. في رحلة ممتعــة تمتـد يومين في القطار، والكيلو مترات المتبقية نعبرها بالعربة، حتى المزرعة في اخر الطريق.

علقت السيدة بينويير ببعض الانزعاج:

- نعم، جدي، بت راويا هذه القصة مئة مرة في الأقل.

لكن العجوز أكمل كأن احدا لم يعترض:

- ذاك الطريق، سمي «طريق آل بينويير». ولكن اسمه صار «طريق الـدجـاج» منـذ أخـذت جدتي تـتـولى تربية الدجاج الرومي. آه، تلك الـدجـاجـات. كانت رائعـة. وكـانت جدتي.. وهنا انفجرت السيدة بينويير غضبى:

- لا إخــالـك ستعيـد لنـا القصة مرة أخرى. إسمح لي أن أقول لك بكل صراحة يا جدي إنني ضقت ذرعا من أخبار دجاجاتك والحشرات المعشعشة فيها. أنسيت أننا نتناول الطعام؟

سكت العجـوز، وحمـل الى فمـه قطعـة لحم أخـذ يمضغهـا بكل هدوء، ثم أعقبها بجرعة ماء، وما عاد فاه بكلمة واحدة طوال ماتبقى من وقت الى المائدة.

كانت جيني تثـور من غضب: لمــاذا لم يدعـوه يكمل قصته؟ كانت تلك هوايته المفضلة، وهي تحب سماعها منه كل مرة. وأخذت تفكر: كانت جدتي تحب تلك الدجاجات الروميات كحبها لأولادها. تجلس في الشمس كل صبـاح، وتغسلهـا من الحشرات المتغلغة فيها، حتى اذا ضبطت واحــدة بين الــريش، التقطتهــا بين ابهــامهـا وسبـابتهـا ودهستهـا. كانت الـدجـاجـات تنـام ليلا على اغصان الشجر، ونهارا

تتزقم الجراد، ولكنها كل صباح تتحلق حول جدتي لتغسلها.

قالت السيدة بينويير:

- أصبح ازدحام السير لايطاق في هذا الحي. كم كان هادئا حين جئنا نسكنه. اتذكر يافرنك؟

أجاب العجوز:

- لم يكن هادئا يوما هذا الحي.

- بلى. أعرف جيدا ما أقول. كان هادئا جدا.

- للشاحنات في الليل هدير لايطاق. لايمكنني أن أنام. ثم..

قاطعه ابنه:

- لو تغلق النافذة يا أبي، تقطع عنك هديرها.

- دائما كنت أنام والنافذة مفتوحة. ليس لأن فقط...

- أبي، أغلق نافذتك، يخف الهدير، وتخف الرطوبة. هذه حكمة لاتنقصك في سنك. تدخلت جيني بسرعة مخاطبة والدها:

- ألا تعظني دائما بضرورة احترام الاكبر منا؟ وهذا جدي، أليس أكبر منك؟ لماذا اذن تخاطبه بهذه اللهجة الجافة؟

- أنهي أكلك ولاتعلقي. وقحة.

صعقت جيني من الجواب الآمر، فاحمرت من الاذلال وانحنت برأسها فوق صحنها وهي تثور من غضب. دائما هكذا شعار الكبار: «إفعلوا ما أقوله لكم، ولاتفعلوا ما أفعله امامكم». وانه شعار ملائم. بطرف عينيها، لمحت أمها تمسح ذقن العجوز بمنشفته. فانتفض الى الوراء كما لو أصيب بلسعة بادرته السيدة بينويير:

- ما بك؟ أمسح الحساء عن ذقنك.

- من الناس من لايطيقون مساعدة الآخرين، وأبي العجوز منهم.

- هذا مؤسف لهم. ولكنني يافرنك، كما تعرفني، لايمكنني الا أن أساعد الآخرين.

استغربت جيني هذا الموقف اتخذته أمها في حالة عادية كهذه. وفكرت: حين أفكر بما حصل الأسبوع الماضي بقربنا، أرتجف. مسكين (نيكي). ماأفظع ذلك المشهد. وتوقفت يد جيني بالشوكة في الهواء، وهي تسترجع في مخيلتها ذلك الجسم الصغير الفاقد الحياة. كانت عائدة من المدرسة حين رأت سيارة الأسعاف متوقفة في عرض الشارع، مصابيح الانذار فيها تطفىء وتضيء. وكانت سيارة للشرطة تقطع الطريق، ورجل لابس بزة عسكرية يحول السير. قفزت جيني تستطلع الخبر. هل تكون شقيقتها الصغرى (اتيتيل) أصيبت بسوء؟ ثم تذكرت أن الصغيرة كانت تلعب هادئة في قفصها. وتقدمت أكثر فاكتشفت أن الجمع متجمهر عند آل رمبو. وسمعت احدى الجارات تقول:

- بلغ عرض الطريق وعبر من دون أن يستكشف السير.

وابتعدت سيارة الاسعاف فسألت جيني:

- عمن تتحدثين سيدتي؟

عن نيكي. تعريفنه؟؟ الولد المعاق. لم يعد السائق يستطيع تجنبه، فدهسه.

صعقت جيني للنبأ. وأسرعت الى غرفتها مذهولة وهي تردد: «نيكي مات. نيكي مات». وبقيت طويلا في غرفتها تفكر في أن الفتى لن يلاقيها بعد اليوم ويرفع نحوها عينين ساهيتين. غابت عيناه في غيابه.

قالت السيدة بينويير:

- كان يمكن أن يحصل هذا الحادث لأي فرد منا. مع هذا الازدحام الحاصل، من المستغرب الا يتكرر دائما. مايزال صوت الفرامل يتردد في مسمعي. كلما فكرت به تجتاحني ارتعاشة في كل جسمي.

تدخلت جيني متوسلة:

- ماذا، ونحن الى المائدة، لو نتحدث في موضوع آخر؟

فتدخلت غيل مجدداً:

الآنسة جيني تصدر الأوامر. وماذا لو كانت أمي راغبة في الكلام على هذا الموضوع؟

- جيني، أعرف يابنتي أن الكلام عن هذه الحادثة ليس مستحبا. ولكنها يجب أن تكون عبرة لنا جميعا.

- أمك على حق يابنتي. السير في شارعنا بات خطرا. لاتخافي من التفكير بالامور كما هي في الواقع.

وقذفت جيني فجأة صحنها. الواقع. رأس الولد المدهوسة جمجمته، أرض الشارع المخضبة بالدم، شهقات بكاء السيدة رمبو، سيارة الاسعاف ناقلة الجثة...

أفرغت السيدة بينوبير ملعقة حساء في فم إيتيل، والتفتت الى العجوز:

- لاتتصور ياجدي كم أقلق عليك حين أراك تعبر شارعين كي تشتري تبغك.

وصحح لها العجوز:

- بل ثلاثة. نسيت شارع غروف.

- أبي، لاداع لتغتاظ. أوريليا على حق. أنسيت انك تسير نحو الرابعة والثمانين؟ لم يعد بمكنك المجازفة هكذا في الشوارع وحدك.

أخذ العجوز يتحسس جيوبه بحثاً عن غليونه، وهو يتمتم:

- اذن هكذا؟ تعاملونني كولد معاق؟

وبيد مرتجفة، حاول تناول كأسه، فأخطأها فاندلق السائل منها على شرشف الطاولة، وتدحرجت على الارض فانكسرت حطاما وأحدثت جلبة.



سرت ايتيل الصغيرة للمشهد، على عكس والدها الذي ثار:

ـ مالأمر؟ الا يكفيني ما أراه يوميا في (السوبر ماركت) كؤوس مكسرة؟

استدركت السيدة بينوبير لا من دون بعض عصبية:

ـ لايهم. كأس إضافية. الاولاد دائما يسكرون الكؤوس الزجاجية,

فجأة غادر العجوز الطاولة، وأكمل الجميع العشاء بصمت تام.

جمحت بجيني رغبة اللحاق به، لكنها فضلت التريث حتى رفع المائدة، مع أنها كانت شديدة التوتر. فحاورت شقيقتها:

ـ غيل، هل تحلين مكاني هذا المساء في المطبخ؟

ـلماذا؟

ـ لسبب خاص.

ـ هذا ليس جوابا مقنعا.

ـ قولي: نعم أو لا.

ـ لا.

امتلأت جيني غيظا من جواب شقيقتها ونظرتها اليها وهي تجيب.

فراحت ترفع الصحون بعصبية حتى قالت لها أمها:

ـ انتبهي الى كسر الاواني. يكفينا اليوم.

فانفجرت جيني من الغضب:

ـ لماذا تخاطبين جدي هكذا؟ هل تظنينه غبيا؟ الاتشعرين بأي ألم تسببيه له؟

غسلت السيدة بيونبير الصحن بين يديها ووضعته على المصفاة قائلة:

ـ وهل أصبحت تعطين أمك دروسا في الاخلاق؟

تناولت جيني كوبا وغسلته بتأن زائد مجيبة:

-أتظنين أنه لايفهم ماذا يجول في رأسك؟ هل تجدينه غبيا الى هذا الحد؟

وهل تنوين اغراقي في محاضرة حول نفسية جدك؟ نعيش معا منذ ثلاثة عشر عاما، وهو لاينفك يعيد علينا مضغ القصص نفسها، وما ان يبتدي بالكلام حتى لايعود متسع لاحد يتكلم سواه.

- ربما. ولكن هذا ليس سببا كافيا لمخاطبته بهذا الشكل.

- لا. لا. انك تتواقحين. اذا كنت تريدنني أن أسمح لك بالذهاب عند روداغع مساء غد، أنصحك بالكف عن هذا الحديث.

- دائما تلاحقونه بملاحظاتكم كأنكم متلذذون بمنعه من فعل مايرغب فعله.

جيني، يكفي. إخرسي. هل تدركين ماتقولين؟ تستحقين صفعتين على هذا الكلام.

اعتذري مني فوراً. الآن اعتذري.

-. . . اعتذر ياأمي.

- هل تظنين أنني سعيدة جدا بمراقبته الى هذا الحد، والقلق عليه كل الوقت؟

لااظنك، وانت تحبينه الى هذا الحد. تغفلين عنه حتى يتعرض لحادثة أو كارثة. حاولي أن تتفهمي.

ورمقت ابنتها بنظرة غاضبة، تنهي عادة حوراهما. وبقيت جيني لحظات تحت تأثير هذا النظرة، تحاول عبثا أن تجد تفسيرا لها.



٥

ـ . . . وهذه ايتيل .

قالتهـا جيني وهي تدخـل ممسكة بيد شقيقتها الصغرى التي كانت تزقـزق من الفـرح . كانت العائلة تتناول الفطور في المطبخ ، وهذه من أحب سـاعـات النهـار عنـد الجميـع وأخذ كل فرد يقبل الصغير بدوره .

قالت غيل :

ـ أمي ، في محلات ولسن تصفية عامة على جميع الكنزات .

ـ اذن فاذهبي واختاري مايعجبك . وأنت أيضا ياجيني .

ـ ساعرج عليه لدى خروجي من الكلية . أتاتين معي ياجيني ؟

ـ لاأستطيـع . أنـا مدعوة الى العشاء عند رودا . أمي ، هل تسمحين لي بالبقاء عندها يوما ؟

ـ هل السيدة ريفرز دعتك ؟

هزت جيني برأسهـا ايجـابـا هي تسقي ايتيـل جرعـة من الحليب تناولتها هذه ثم بصقتها وعادت أمها الى السؤال :

ـ أمتأكدة أنت ان السيدة ريفرز موافقة؟

ـ قلت لك نعم ياأمي .

ـ في هذه الحالة، لامانع عندي .

ـ شكرا ياامي .

ـ سلمت جيني شقيقتها (ايتل) الى شقيقتها (غيل) . كانت تريد أن تخبـر بذلـك جدها . وفجأة، صرخ والدها وهو يبعد عن وجهه الجريدة بين يديه :

ـ ربـاه . مستحيـل . سيصـار الى بيـع (السوبر ماركت) ماذا سيكون مصيـري اذا عرف الشـارون ان سعـر البضاعة المعلن عنها هو ٩,٣٠ فرنكات لا ٣,٩٠ كما يقول هؤلاء؟

تمتمت جيني وهي تضع صحونها في المغسلة :

ـ مسكين أبي ، سيقع في ورطة .

ـ جيني ، اتركي لي رقم هاتف رودا على دفتر الملاحظات في المطبخ .

والتفت السيدة بينويير الى مكان دفتر الملاحظات ، فقطبت جبينها فجأة :

ـ ماهذا هناك على الدفتر؟ فرنكي ، اذهب وجئني بهذه الورقة .

هب فرنكي منفذا وقال وهو يعطي أمه الورقة ثم سمرها في يده :

ـ هذا خط جدي . لا سأقـرأهـا : «لا لأنني بلغت الثـالثة والثمانين ، يصـار الى معـاملتي متخلفـا عقليـا . في غضـون ثمـانية وسبعين عاما مضت، اجتـزت الشـارع وحـدي آلاف المـرات . لو كانت دهستني سيـارة، لاخـذت علما ولكان الخبر صدر في الجريدة المحلية ولكنت قرأتـه في زاويـة الحوادث المختلفة» . وأضاف فرنكي مشدوه العينين .

«الامضاء: كارل بينوبير».

علق السيد بينوبير:

- مايزال على تصرفاته الساخرة.

وأضاف وهو ينظر الى الاولاد حول:

- من يضحك أعاقبه بصفعتين.

ولكن جيني اخبرت صديقتها رودا، حين بلغتها، فضحكت الفتاتان معاً وأردفت رودا:

- جدك مذهل. ياليت جدي يشبهانه. انهما مضجران. احدهما يمضي في تصليح الساعات والآخر لايخاطبني الا بايجاز.

سرت جيني لاكتشاف أن لها جدا استثنائيا. أكملت رودا:

- جدي هيرمان لاينفك يردد أنه لايحب الاولاد ولن يحبهم. سوى أن أمي، وهي تعرفه جيدا، تؤكد أنه سيغير رأيه حين سأبلغ الثامنة عشرة.

- طريف جدك.

بعد العشاء، انتقلت الفتاتان الى الحديقة العامة. وبعد دقائق من الركض، عادتا الى المنزل لاهثتين. واذ دخلتا، صرخت رودا: «هاتان نحن». كان والداها في غرفة السهرة يتابعان برنامج التلفزيون، فبادرها والدها:

- مالك هكذا؟ رتبي ثيابك. ضعي قميصك داخل السروال. من اين تخرجين؟

وعقبت أمها:

- تبدين مختلة الهندام جدا. اين كنت؟

- كنت مع جيني..

- وأين كنتما ياجيني؟

- كنا نركض معا. هذه ثيابي أنا أيضا مختلة الهندام.



تدخل السيد ريفرز:
- وأين ركضتما؟
- في الحديقة العامة ياأبي.
- رودا، كم مرة حذرتك من الذهاب وحدك ليلا الى الحديقة العامة.
- لم أكن وحدي. كنت مع جيني.
- جيني فتاة رائعة. ولكن هل هي قادرة على حمايتك وحماية نفسها من المفاجآت غير السارة؟
وعقبت السيدة ريفرز:
- والدك على حق ياصغيرتي. الحذر ضروري، خاصة في الاماكن العامة. والأن اذهبا للاغتسال و.. فوراً الى النوم.
ثم أخذت بين يديها إحدى يدي ابنتها متفحصة:
- يلزمك قص أظافرك ياأرنبتي.
وشدت بها الى صدرها زارعة على خدها قبلة حنان، وفوجئت:
- ماهذه؟ بثرة في ذقنك؟ إياك أن تلمسيها.
أخذت جيني تتأمل: كم هذه العائلة هادئة: لاشجار، لاصراخ.. لا تذكر مرة ان والدي رودا وبخاها بقسوة مربكة. فكأن هوايتهما ألاحب: متابعة ابنتهما الوحيدة وأحاطتها بالحنان. دخلت الفتاتان الى غرفة الحمام الزرقاء الانيقة، فسألت جيني:
- هل تحتملين هذه الاحاطة الزائدة يارودا؟
- اعتدت عليها.
- أنا لاأحتملها. واستشيط غيظا لاقل مضايقة. كم كنت أتمنى أن يكون لي هدؤك. هل تعتقدين أننا. لهذا، صديقتان: يقال ان النقيضين يتجاذبان.
- ممكن.

وانزلقت كل واحدة في سرير، لمواصلة الحديث. فجأة قالت رودا:

- كل أثاث غرفتي هذه من خشب القيقب المرقش. مارايك به؟

- أنـا لااهتم كثيـرا بالاثـاث. على عكس شقيقتي التي تهمهـا هذه الامور. وهي تطالب أمي بشراء أسرة جديدة لنا في رأس السنة.

دق الباب ودخلت السيدة ريفرز:

- لاتسهرا كثيرا والا تنهضان غدا محمرتي العينين.

- كلا ياأمي سننام باكرا.

ما أن خرجت أمها حتى قالت رودا:

- مالك ياجيني ساهية؟ هل يشغل افكارك أحد؟

- نعم.

- ماسمه؟

- . .

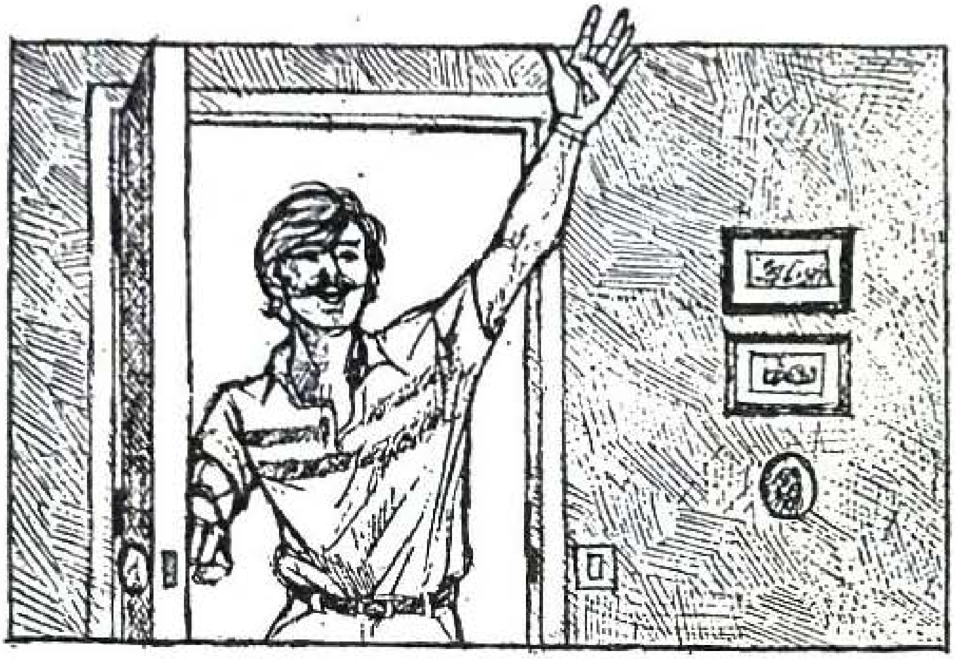
- مالحرفان الاولان من اسمه؟

-ك. ب.

- ك. ب. . . أ. . عرفته. كارل بينويير. جدك. ولماذا يشغلك؟

- أحتـاج دائمـا الى حنـانـه، واليوم عامله والدي بقسوة. اخشى ان ينسحب هذا علي.

لم تجـد (رودا) ماتقـولـه. فهي، المغمـورة بالحنان، تعرف معنى انحسار الحنان عنها. وغرقت في سريرها في حين جيني، وهي تفكر بالحنان، وجدت تفسيرا للنظرة الغاضبة التي رمقتها بها أمها مساء أمس في المطبخ.



٦

ذات يوم سبت، بعد الظهر، فاجأ (فنس) الجميع بوصوله في دون سابق انـذار. كانت جيني ترتب الأواني في المطبـخ، ووالدها يرتشف قهـوتـه، ووالـدتها مستلقية على كرسيها تقلب أوراق مجلة عن الاثاث جمد فنس في الباب صارخا:

ـ ها أنذا هنا.

فصرخت جيني من الداخل:

ـ فنس.

وردد أبوه بصوت أكثر انخفاضا:

ـ فنس. كم أجدك أطول.

فأجابه الفتى بنظرة مرحة:

ـ بل أنت الذي صار أقصر ياأبي..

ورد الوالد ببسمة سموح :

- دائما لسانك سريع الجواب، تقدم،لم أنت واقف هكذا في الباب. أتأخذ معي القهوة؟

- كلا، شكرا.

ومرر اصابعه على شاربيه وهو يداعب باليد الاخرى شعر جيني :

- وأين شقيقتاي الحبيبتان؟

تقدم من أمه وقبلها على خدها بشوق، فأخذت تمطره بوابل من الاسئلة :

- كيف هكذا فاجأتنا بمجيئك؟

- أحمل لكم مفاجأة.

- مفاجأة؟؟ ماهي ؟

- أنا واثق أنها ستعجبك يا أمي.

وعاد الى الباب، مخاطباً:

- هلمي، أطلي..

وأطلت من الباب صبية شقراء جميلة، تتأبط رزمة مغلفة. اخذها (فنس) من يدها، وتقدم من أمه المشدوهة ووالده المستغرب، قائلا باعتزاز:

- اقدم لكم فاليري.

فأردفت الصبية بعده:

- السلام عليكم.

وتطلعت الام بولدها مستفسرة :

- هل هذه مفاجأتك؟

استدركت جيني فوراً مجازفة :

- أهلا فاليري.

فأجابت الغريبة :

- أراهن أنك جيني. هل أنا مخطئة ؟ (فنس) حدثني عنك كثيرا.

أنا سعيدة بالتعرف اليكم.

استفسرت السيدة بينوبير:

ـ هل أنت زميلة فنس في الكلية؟

ـ نعم. أنــا طالبــة في قسم الفنـون الجميلة. وعنـدمـا أتخـرج، سأمـارس تدريس الـرسم للصغـار. أحب الاطفال والاولاد كثيراً. لهم عندي سحر خاص.

وتدخل فنس مشيرا الى فتاته سائلا:

ـ وهي؟ أي سحر تجدون لها؟

لم تشهد جيني يوما شقيقها بهذه البسمة الفخورة. أجاب الوالد:

ـ أجلسا. ماذا تأخذان؟

أجابت فاليري وهي تضع الرزمة على الطاولة:

ـ لاشيء. شكرا.

قالت السيدة بينوبير مستغربة:

ـ قطعتما كل هذه المسافة لتمضيا معنا ساعات قليلة؟ هذا جنون. عليكما ان تنهضا غدا باكرا جدا لتكونا صباح الاثنين في الكلية.

أجابها فنس بدلال وابتسامة خاصة:

ـ لايبدو أنك مسرورة برؤيتي.

ـ ماهـذا الـذي قصـدتـه ياولدي. ولكن عبور هذه المسافة الطويلة جدا، والعـودة في اليـوم التـالي لبلوغ الكليـة في الوقت المحدد، أمر ليس سهلا.

حسم الوالد الجدل

ـ والسيارة، أما تزال بحالة جيدة؟

ـ جدا. ولكنني لم ات هنا لاتحدث عنها، بل عن نبأ مهم أزفه لكم.

تبادل السيد بينوبير وزوجته نظرة تفاهم، وقال

ـ هيا. إننا نصغي.

أخذ فنس يداعب شاربيه عاجزا عن الكلام. وساد صمت لم يكن يقطعه الا صوت تكتكات ساعة الحائط. وماهي الا لحظات حتى قالت له فاليري بلهجة مشجعة:

ـ مابك؟ لماذا لاتتكلم؟

ـ الواقع أننا.. أنا وفاليري.. تزوجنا أمس الاول.

جحضت عينا السيدة بينوبير وتجمدتا على ولدها، فأجاب زوجها بلهجة هادئة مقلقة:

ـ أظنني لم أسمع جيدا. هل تعيد لي ماقلت؟

ـ أنا وفاليري تزوجنا أمس الاول فكرة راودتنا منذ مدة وقبل أيام اتفقنا أن لماذا الانتظار أكثر، ونفذنا ماكنا نفكر به.

أجاب السيد بينوبير ببعض لؤم:

هكذا إذن.

وأضافت السيدة بينوبير ذاهلة:

ـ شككت أن يكون الامر نبأ ارتباط. قد تكونان على خطبة. أما أن تكونا تزوجتما...

ولم تكمل عبارتها، ثم استدرات صوب فاليري:

ـ ووالداك، ماذا يقولان في الزواج المتسرع؟

ـ رضيا مرغمين. لهذا السبب نحن هنا.



ـفنس، ألا تجد أن كان عليك مراجعتي قبل الاقدام على هذا العمل؟

ـ أعرف سلفا ياأبي كيف ستواجهني، لو فعلت.

وتبادل الوالد وابنه نظرات ساخنة، أردف فنس بعدها:

ـ وليس هذا فقط. قررت أن أترك الكلية.

فذهلت أمه:

ـ تترك الكلية؟ فنس، ماذا تقول؟؟؟

ـ لاتقلقي ياأمي. هذا كله مؤقت. لوقت محدود.

فأكمل الوالد غاضبا:

ـ وتخليت عن دروسك؟

تدخلت فاليري بسرعة:

ـ سيد بينويير، أرجو أن تتفهم وضعنا.

فانتفضت السيدة بينويير:

ـ أي وضع هذا؟

ـ أمي، أرجوك لاتغضبي. والدا فاليري هددا بأن يقطعا عنها كل مساعدة اذا هي تزوجت وقد نفذا تهديدهما فاضطرت الى التوقف عن الدروس.

استدرك والده:

ـ وأنت، لماذا توقفت عن الدروس؟

ـ كي لاارهق زوجتي بالعمل فيما أنا مستريح على مقعد الجامعة. لهذا فكرنا: اذا رضيتما بالسماح لنا أن نسكن معكما، يمكننا أن نوفر من عملنا مبلغا يساعدنا على مواصلة دروسنا في الفصل المدرسي المقبل.

ضرب السيد بينويير بكفه على الطاولة:

ـ هل يمكن تصديق عمل أرعن كهذا؟ اذا كانت هي قررت ايقاف دروسها فما دخلك أنت بهذا؟ هذه مشكلتها هي .

ـ أبي . . شرحت لك أنني . .

ـ كفى . لاتكرر لي ذلك . سمعته .

قالت الام لزوجها :

ـ فرنك ، أرجوك ، حافظ على هدوء أعصابك .

ومد يده ليفك زر القميص عند عنقه كأنه في ضيق تنفس ، وأردف :

ـ إذن ، تحلم بأن تعود الى الجامعة وتستأنف دروسك بعد عام انقطاع؟؟ مجنون أنت؟

ـ ولكن ياأبي . . .

ـ لاأرضى بأي «ولكن» . أعرف مالذي سيجري . لن تكادا تشعر ان ببعض الارتياح حتى يكون لديكما طفل ، ووداعا كل حلم بالعودة الى الجامعة .

تدخلت فاليري وهي تداعب بهدوء خيطا من الرزمة :

ـ لاتخش هذا ، سيد بينوبير . فلن يحدث .

ـ وتظنان أنكما تمرران هذا الوعود؟ أوريليا ، قولي لابنك ان لايحق له رمي كل شيء وراء ظهره برعونة ، بعد كل تعبي لاؤمن له دراسته في

ـ اذن ، ياأبي ، تطردنا؟ حسنا ، سنتصرف بما نستطيعه .

قالت السيدة بينوبير برعب .

ـ فنس ، أرجوك ، أنت تعرف والدك . انه شديد الانفعال . فرنك ، قل لابنك انه يستطيع الاعتماد علينا .

وانهال السيد بينوبير على الطاولة بقبضته القوية :

ـ لاأتراجع بكلمة واحدة عما قلته . مع ذلك ، أنت ولدي ، ويمكنك . . .

قاطع فنبس أباه بقوة:

ـ ولكنني لست مجرما على أي حال. . .

وخيم صمت ثقيل. سكبت السيدة بينوبير فنجان قهوة، فتقدمت منها فاليري مجازفة بالقول:

ـ سيدة بينوبير، تفضلي، هل تقبلين هذه الهدية من كنتكِ؟

ـ ماكان عليك أن تزعجي نفسك ياأبنتي.

فهرعت جيني فضولية:

ـ أسرعي أماه، افتحيها.

فكت السيدة بينوبير الخيط الذهبي وخلعت الورقة الملونة. انحنت جيني لترى أوضح.

فتحت أمها العلبة، ورفعت الفتحة فشهقت:

ـ أوه. . فرشاة أسنان كهربائية. .

فسأل زوجها:

ـ ماذا؟ ولماذا هدية من هذا النوع؟

فاستدركت فاليري مزمومة الشفتين:

ـ كنت أظن أنها ترضيكما.

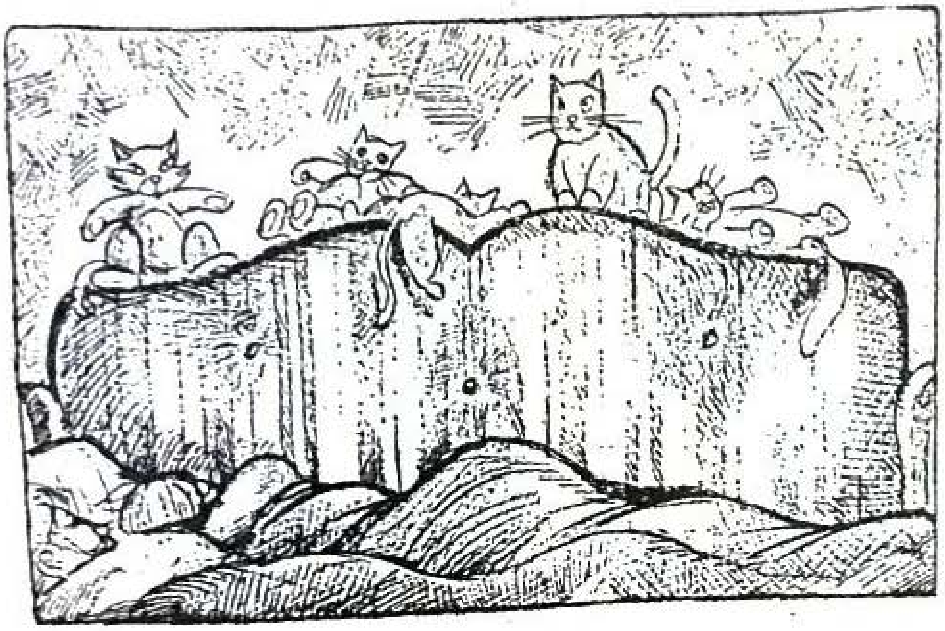
ـ ومالذي أوصلك الى هذه الفكرة بالذات؟

ـ والداي يستعملان فرشاة كهربائية، وهما مرتاحان لها حتى لم يعودا يستطيعان التخلي عنها.

هنا صرخ السيد بينوبير بأعلى صوته قالبا شفتيه حتى ظهرت أنيابه:

ـ حين يجيء اليوم الذي أمسي فيه عاجزا عن غسل اسناني بيدي، فلأؤخذ الى المأوى. أتسمعين ياأوريليا، الى المأوى. .

وعلا زئيره حتى التفتت جيني الى فاليري وفكرت: «ما أهدأ اعصاب فاليري: والدي يزمجر وهي لايرف لها جفن غضب». .



٧

روت جيني كل الحكاية لرودا، وعقبت قائلة:

- وها العروسان ينامان الآن على الأريكة في الصالون.

- والداك عالجا الامر بحدة. ومن المؤكد ماكان والداي ليعالجاه هكذا.

- ليتك ترين منزلنا في هذه الأيام. ورشة حقيقة.

وفعلا: كانت غرفة السهره - بمقاعدها الوثيرة وأضوائها الخافتة وأريكتها المريحة - صالة يطيب فيها الوقت وتجتمع فيها الاسرة بفرح. تكتب فيها غيل وجيني دروسهما، ووالدتهما تخيط أو تتابع برامج التلفزيون. ومنذ اخذ فنس وفاليري ينامان على الاريكة، انقلبت الغرفة الى فوضى، وعادة الاسرة الى لاانتظام. كان السرير يبقى احيانا طوال النهار مبعثرا، والجزادين والحقائب في الوسط والزوايا،

والاحذية والجزمات والجوارب في كل مكان، وصدريات الصوف متروكة حزما على المقاعد، فيما على جهاز التلفزيون كوم من المحارم الورقية والامشاط والفرش تجاور جزادين الهندام والتبرج وقوارير لدائنيه من جميع الالوان وأنواع المساحيق التي تستعملها فاليري للتجميل. وفي الزوايا أكداس الكتب، وتحت الكرسي راحتان لكرة المضرب، فيما قطط فاليري مصفوفة بوبرها الناعم على مسند الاريكة.

أردفت جيني مستفسرة من رودا:

- يبدو أنها لاتفارق قططها. هل هذا، برأيك، تصرف طبيعي؟

- ولم لا؟ أنا ايضا افارق كلبي الابيض. تبدو لي لطيفة هذه الفاليري.

- ربما. لم اكون عنها رايا شخصيا بعد. لكننا في الاسرة نجدها مزعجة نوعا، خاصة عند الصباح.

وعلقت جيني:

- النشاط.. النشاط.. ومافائدته مادامت هي لاتشتغل؟ فعلا انها تبالغ. أفهم أن والدي يرهق من احتكاكه اليومي مع الزبائن، وأمي من تلال الغسيل الوسخ، ولكن هي ماذا تفعل؟

- ألاحظ انكم منزعجون من وجود شخص غريب بينكم.

- كنت أود أن اراك في اطار كهذا، وسط صراخ وفوضى في كل أنحاء المنزل، وأن تري وجه جدي مذهولا حين فأجاناه، أنا وفرنكي، مهرولين نزولا عنده هذا الصباح، نتسابق على استعمال مغسلته وحمامه.

- أجد هذا مسليا لامزعجا.

- مسليا في قصة سينمائية لا في الواقع. لو كنت ترينا كيف نجلس الى المائدة منحشرين كسمك السردين. نتضارب بالاكواع كلما اخذنا صحنا أو مددنا ايدينا لنسكب. تماما كما في سيرك.

ـ عليكم بالصبر. قريبا ينتقل العروسان الى شقة خاصة بهما.

ـ لامجال لذلك. هما جاءا يسكنان معنا للتوفير. وفور ايجاد فاليري عملا، سيفتحان معا حسابا في مصرف.

ومن دون ابطاء، وجد فنس عملا مع أبيه في السوبرماركت. وبقيت فاليري تفتش في الاعلانات المبوبة عن وظيفة، مهاتفة كل طالب موظفين. وكانت تمضي أيامها متكاسلة في المنزل، تأكل الفواكه وتشرب الشاي وباحثة في مجموعة صور العائلة عن صور فنس صغيرا. وكانت لها عادة أن تترك وراءها حبوب البزر والعجمات ملفوفة باتقان في المحارم الورقة. ذات يوم سألتها جيني:

ـ لماذا تتركينها هكذا؟

ـ انها عادة... أليست لك أنت ايضا عادت؟

ـ كلا. أنا فتاة طبيعية. لاادخن، لا الفظ كلاما بذيئا، ولاأغش في الامتحان الخطي.

ـ هذا مضجر. لااحسدك عليه.

لم تكن جيني تعرف كيف تتعامل مع فاليري. وغالبا ماكنت تتساءل عما يختبىء خلف هذا الوجه الباسم الهادىء. في الظاهر، كانت تبدو وحدها في هذا التساؤل. ففالليري عرفت كيف تكتسب رضى حماتها، حتى أن السيدة بينويير ـ من حرصها على حميمية العروسين ـ قررت أن يسكنا في غرفة فرنكي، وأن ينام الاخير في غرفة السهرة.

سوى ان فرنكي استأثر بالغرفة كليا، واخذت ثيابه وملابسه الداخلية تنتشر في جميع أرجائها، وراح يفرض على سائر أفراد الاسرة برامج التلفزيون التي يحبها هو، وذهب حتى حرم على والده تدخين غليونه فيها خشية على رئتيه كرياضي. وسرعان ما بدأ السيد بينويير بالتذمر ثم انتقل الانزعاج الى جميع افراد الاسرة.

ذات مساء، احتدم الجدال بين فنس ووالداه بسبب أمر في العمل.

حاول الجد العجوز التدخل لاصلاح الحالة بينهما، فزجره الا يتدخل في مالايعنيه. واذ تدخلت جيني ملهوفة لمساندة رأيه، زجراها كذلك بقسوة، وانذرها والدها بمغادرة المائد،ة فوراً.

علقت السيدة بينويير:

- هذا التوتر يزهقني. اذا استمر سأنفجر غضبا.

- أوريليا، لاتقلقي ياحبيبتي. أرجوك. احفظي اعصابك.

وقاطعت فاليري حماها:

- كل هذا بسببي. لو لم اتزوج فنس، لما كان كل هذا ليحصل.

كانت جيني تراقب زوجة اخيها من المطبخ حيث التجأت، فوجدتها حكيمة بهذه العبارة الاعترافية. ثم أكملت فاليري:

- يجب البحث عن تدبير آخر.

فعقبت السيدة بينويير:

- اتمنى ذلك. ولكن لاارى ماذا يمكن أن يكون هذا التدبير.



٨

ذات يوم، عادت جيني من المدرسة ففوجئت بفاليري في غرفة جدها، تحت. صعقت وواجهتها:

- ماذا تفعلين هنا؟

- خرج جدك في جولة، فاستفدت من غيابه لاجيء وألقي نظرة على غرفته. كم مدلهمة.

- مدلهمة؟

- طبعا. ويمكن أن تكتسي جوا أبهى في حال تغيير طلائها واستبدال الاثاث.

ثم توجهت نحو غرفة الحمام وأردفت:

-وطبقة سميكة من اليرتيق تعطيها نورا أكثر. وعلى هذا الجدار، أعلق لوحة...

- لوحة في الحمام؟؟؟ فكرة غريبة.

- بالعكس. ثم.. تعرفين ماذا ينقص هنا؟ الخضرة. يمكننا وضع نباتات هناك، وحوض جيرانيوم الى النافذة. الاترين ذلك؟

- جدي مرتاح هكذا في غرفته. ثم... بم تتدخلين؟ ليس في نية جدي احداث أي تغيير هنا.

وتقدمت فاليري من جيني:

- أريد أن أهمس لك سرا.

رفعت جيني عينيها صوبها تنتظر التمتمة، فقالت فاليري:

- عندي، لهذه الغرفة فكرة ممتازة. أنا واثقة انها تلائمنا، انا وفنس، تماما.

فغرت جيني فاها، وتفرست في زوجة اخيها، قائلة باستغراب شديد وكلام مخنوق:

- و. جدي، الى اين يذهب؟ هل فكرت به؟

- طبعا فكرت: أنا وفنس نسكن هنا، وهويسكن في غرفة فرنكي. هكذا، يأخذ كل فرد في العائلة مكانه المناسب ونستقل أنا وفنس في غرفتنا الخاصة.

- تريدين أن جدي يشارك فرنكي؟ لا. افكارك غير معقولة.

- ماذا لو ذهبت تلعبين في مكان آخر بانتظار عودة جدك؟

- لا. أفضل أن أبقي هنا.

وأخذت فاليري تذرع الغرفة جيئة ورواحاً، وهي تدندن. ثم التفتت الى رزم الصحف القديمة

- فعلا، والداك مهملان. هذه الرزم توشك أن تسبب حريقاً يودي بكل البيت.

وصلت عند درج، فتحته، وجعلت تفتش فيه، فصرخت جيني:

- لاتلمسي شيئاً. هذه الاغراض ليست ملكك.

أغلقت فاليري الدرج متمتمة بتعجب:
- كم تنقلبين شرسة حين الأمر يتعلق بجدك.
وبدأت جيني تفهم ماتخبئه فاليري خلف تصرفاتها المتملقة. انا قاسية وعنيدة. وقررت جيني أن تترصدها فلاتدعها تنفذ مآربها بها ولابجدها.
خرجت الى الباب، وتناولت حربة طويلة كما لو انها ترد بها كيد مهاجمين، مما جعل على شفتيها ابتسامة لفتت نظر فاليري فقالت بلؤم:
- ماالذي يسليك هكذا؟
- لاشيء.
- كم كنت واهمة بأن يمكنني الاتكال عليك.
- صحيح؟ بم؟
- كنت أعتقد أنك - أنت في الاقل في هذه الاسرة - ذات رشاد وحلم. لأن الباقين.. المهم... مادمت ترغمينني على ذلك، سأطرح مشروعي على والدك هذا المساء.
وفعلا، في اثناء السهرة، نزل السيد بينوبير وزوجته وفنس وفاليري مصطفين عن الجد العجوز. لمحتهم جيني يعبرون، فقفزت:
- أجي معكم.
لكن أمها زجرتها:
- أكملي واجباتك المدرسية.
- أنهيتها جميعها.
طرق السيد بينوبير الباب، وفتحه. كان العجوز يحمل جهاز راديو الى أذنه ويسمع الموسيقى. فبادره ولده:
- أبي، جئنا نحدثك في موضوع. هل لنا أن نجلس؟
- طبعا. أهلاً وسهلاً. تفضلوا. أزيلوا هذا الركام عن المقاعد

واجلسوا. نعم: ماهو هذا الموضوع؟ هاأنذا أنصت.

أشعل السيد بينويير سيجارة، وتنحنح ثم بدأ بالكلام:

ـ أنت تعرف أننا نعاني، فوق، من مشكلة وساعة. نحن متراصون كثيراً. فخطرت لفاليري فكرة عظيمة، هي . . . اسمعني جيداً ياأبي قبل أن تجيب . .

ـ ولماذا تداور؟ قل ماتريد.

ـ فكرنا أنك لو تشارك فرنكي غرفته فوق، وتترك غرفتك هذه للعروسين.

ـ ولماذا أنتقل للسكن فوق؟ أنا لاازعج أحدا هنا.

اردفت السيدة بينويير:

ـ فكرة فاليري ليست سيئة. تحل لنا مشكلة الاماكن وتتيح لعروسينا أن تكون لهما غرفة خاصة، خصوصا أنهما في مطلع حياتهما الزوجية.

تدخلت جيني مخاطبة زوجة أخيها:

ـ أمر رئيسي لم تفكري فيه: ليس في هذه الشقة رشاش حمام.

ـ نهرتها أمها:

ـ جيني، لاتتدخلي في مالايعنيك.

أجاب فنس:

ـ ليس مهم. تصعد فاليري فتستحم فوق.

علق العجوز:

ـ أراكم فكرتم في جميع التفاصيل.

تابع السيد بينويير:

ـ كلما فكرت بذلك، وجدت الفكرة صائبة. هذه الشقة كبيرة عليك وحدك. لم تعد تستطيع صيانتها وفعلا، أنظر حولك الى حالة الطلاء.

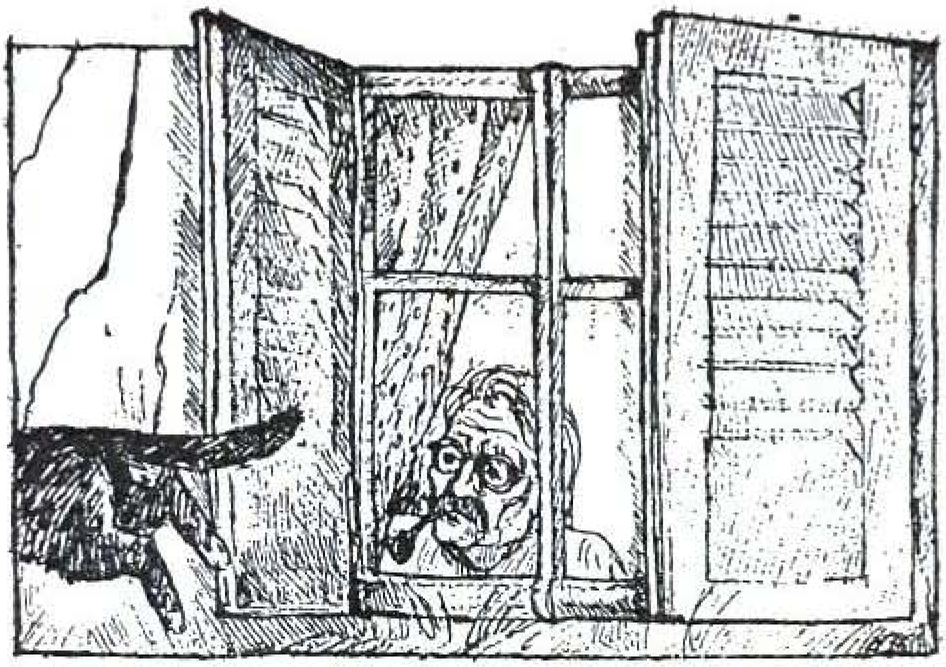
وأردفت السيدة بينويير:

- ستكون أفضل حالا معنا فوق.

أخـذ العجـوز من قارورة الى جانبـه حبتين من الاسبيـرين وراح يمصهما بتأن. وبعد لحظات صمت، سأل السيد بينوير:

- اذن ، ماذا تقول ياأبي؟ قرارك ينقذنا من مشكلة مربكة. وكل هذا لايستغـرق سوى سنة كي يكـون عروسـانـا جمعا بعض مايمكنهما به استئجار شقة لهما. ماذا تقول؟

- ليس أحب علي من أن أودي لكم خدمـة. تأكـدا. ولكن بالنسبـة لهذا الموضوع، اعتذر أنا آسف لااستطيع الموافقة على هذا الطلب.



٩

الـوقت ليـل، ونـافـذة العجـوز مشقـوقـة. اقتربت منها قطة حاذت الزجاج ثم انسحبت.

جيني كانت معه. لمحت شخصا يمر.

كان العجـوز يمضـغ حبـوب الاسبـرين. فاجأتـه مرتين، خلال الاسبوع الفـائت، جالسـا في العتمـة، ساهما يدق، آليا، على أزرار سترته. تقدمت منه:

ـ ماذا تفعل ياجدي؟

ـ أفكر.

ـ بم؟

ـ بأمور شتى.

ولم تصـر جيني على جواب أوضـح. كانت تعرف مايزعجه: تكرار

مفاتحة والديها إياه بأمر الشقة. كانا يحاولان الضغط عليه ليغير رأيه.

كانت (غيل) تنظم حفلة راقصة، ولاتنفك تمر بين المطبخ والقبو، مما كان يمزق جيني غضبا إضافة الى الحاح والديها على جدها.

أخذت ورق العب وجلست قبالته بمرح:

- نلعب جولة ورق؟

- كما تريدين. وبكم الجولة؟

- بعشرة فلوس.

واخـذت تخلط الـورق، فسمـع خطى قوية في الخـارج. قطب حاجبيه سائلا:

- ماذا يجري؟

- انها غيل. تنظم هنا سهرة راقصة.

وبدآ باللعب. بدا غير متحمس. ثم بادرها بقليل من الاهتمام:

- وكيف تريدنني أن أربح باوراق ضعيفة كذه؟

-خسرت. انها غلطتك. لم تكن منتبها الى اللعب.

- مع هذا الصخب المزعج، يستحيل أن نكمل.

وقام الى غلاية الشاي يضعها على النار، فيما جيني تتابعه وتلاحظ وجهه المهموم. لذلك لم تفاجأ حين سألها:

- هل تجـدين أن علي إخـلاء الشقـة لفنسنت وزوجتـه؟ لاينفـك والداك يتهمانني بالاناني العجوز، حتى لاكاد أصدق أنني هكذا. ماذا تقولين أنت؟

- أبدا، لن تفعل.

واحمرت وجنتاها غضبا، وقفزت تغمر عنقه بذراعيها، متمتمة:

- معقول أن يجيئا للسكن هنا؟ كنا هانئين قبل هذه القصة.

فك العجوز ذراعي حفيدته بحنان عن عنقه وأردف:

ـ هذه هي الحياة ياصغيرتي . الشبان يتزوجون ، يؤسسون منزلا ، وتلزمهم زوايه لهم .

ـ صحيح . ولكن هذا ليس سببا كافيا ليأخذوا شقتك .

ـ هذه ، ياصغيرتي ، ليست شقتي . لاتنسى أن البيت ملك أبيك .

هنا ، علا صوت الموسيقى على نحو مزعج . تناول العجوز حبتي اسبيرين بيدين مرتجفتين . وكأن يدا اعلت الموسيقى ، بعد ، أكثر . فتذمر العجوز :

ـ ماذا يجري ؟ هل هم صم ؟ مالذي يفعلونه في الداخل ؟

وطغت على وجهه بقع حمراء من الغضب . بدا فاقدا أعصابه ، من الموسيقى الصاخبة ومما ترهقه به الاسرة . فاستدركت جيني الامر وهبت قائلة :

ـ سأدخل وأقول لهم أن يخفضوا الموسيقى .

دخلت عليهم . كانوا نحو اثني عشر شخصا . فوجئت بفرنسين ، صديقة غيل ، تلقي برجلها على الحائط . ومن حين لآخر ترفس برجلها القاطع فتحدث ضجة كبيرة . ورأت شقيقتها الكبرى غيل ترقص مع وولي فرنكلين وهو عاري الصدر . ما إن رأتها غيل حتى زعقت :

ـ ماذا جئت تفعلين هنا ؟ أنا مادعوتك الى السهرة .

ـ الجو لذيذ . ولكن الا يمكنكم تخفيض الصوت قليلا ؟ صمت آذاننا .

ـ نحن هنا مسرورون .

واردف وولي ببسمة باهتة :

ـ من ؟ مدعوة جديدة ؟ قدميني اليها .

فأجابت غيل :



ـ لا . عابرة وتخرج .

كانت فرنسين لاتـزال تستنـد رجلهـا على الحـائـط واحيانات تركله محدثة صعقة مزعجة . اخذت جيني شقيقتها جانبا وهزتها :

ـ قولي لهم ليخفضوا الصوت قليلا . جدي منزعج جدا .

ـ فليأخـذ حـبـوبـا مهـدئة . أنا لاأتلقى أوامر من أحد . هذا حقنا في الرقص والسهر .

لكن صوتا راعدا قاطعها: كان العجوز اقتحم المكان فاقدا اعصابه :

ـ اوقفوا كل هذا أيها المجانين . كفاكم هرجا وازعاجا .

وتـوجـه صوب جهـاز المـوسيقى واقفـه . فانفجـر الجميـع ضحكـا واستهـزاء من تصـرفـه ، وراح الشبـان يرقصـون حوله هازئين ، فتمكن العجوز من واحد بينهم ، أمسك به فأخذ ويصرخ . صاحت غيل :

ـ مالك وله . أتركه .

وغـرق البـاقـون في ضحكة ساخرة مقلدين حركات العجوز . وفيما الشـاب يتخبـط بين يدي العجـوز ويصشـرخ ، انقض ثلاثـة من رفـاقـه فدفعوا العجوز الى الحائط وانقذوا رفيقهم .

هرولت جيني الى جدها قلقة خائفة :

ـ هل أنت بخير؟

التفت اليها ، مقطوع الانفاس ، محقون الوجه ، وأشار برأسه أن : نعم .

كانت الصدمة قوية عليه . وكانت نظرته ساهمة كملاكم مهزوم .

تفرق المدعون مذعورين ، وصرخت غيل في وجه جدها بعنف :

ـ هكذا ، اذن افسدت لي سهرتي .

فأجابتها جيني بعنف مماثل :

ـ إخرسي . لاتخاطبي جدي هكذا .



١٠

صباح على الفطور، روت غيل بلهجة متباكية كيف جدها افسد لها سهرتها:

- هذه أول مرة أدعو فيها اصدقائي الى البيت. كم خجلت منهم.

انتفضت جيني لطريقة روايتها القصة، فاعترضت:

- أبدا. هو ليس مخطئاً. طلبت منك أن تخفضي صوت الموسيقى فلم تفعلي.

- الصوت.. الصوت.. وتعرفين يا أمي ماذا فعل أيضا؟ افسد لي جهاز الموسيقى.

تدخلت جيني مستنكرة:

- أبدا. غير صحيح.

- جيني، هلا خرست عن هذه التكذيبات؟

وأكملت غيل متباكية :

ـ واذا كانت الموسيقى تزعجه هكذا، فهو ليس طبيعيا .

تدخلت فاليري :

ـ كوني مكانه. هو لم يعد شابا. ثم كل هذه القصة ماكانت حصلت لو كنا سكنا الشقة. فنحن لاتزعجنا الموسيقى .

قال السيد بينويير:

ـ مهما يكن، هذا لايبرز تصرف أبي بهذه العصبية . الاحظ أنه عصبي المزاج هذه المدة. عقبت غيل:

ـ فعلا. يبدو مهتاجا كل الوقت.

ـأحست جيني بأنها ستتقيا امام صحن البيض. حملت الى فمها الملعقة بصعوبة. فالسائل الاصفر يثير فيها الغثيان. وكذا كل هذا الحوار. إلى هذا الحد لايحاولون ان يفهموا تصرفات جدها العجوز؟ ليس مستغربا، اذن، أن يكون شديد التوتر. فالالحاح عليه من كل جانب. وما الذي فعله لهم؟ لم يكن يطلب شيئا من أحد. دائما وحده في شقته تحت الارض، يدخن غليونه ويقرأ الصحف القديمة.

انهيت جيني اخلاء الطاولة. وفرغت من نزهة ايتيل، ونزلت الى جدها :

ـ صباح الخير، جدي. نمت جيدا؟؟

وزرعت قبلة على خده، فبدا بردان كثيرا، فيما كان يلبس كنزة ثانية.

ـ البرد قارس جدا هذا الصباح.

ـ مع أنني اجد الطقس اليوم جميلا. . . وهذا. . .

وتوقفت فجأة عن الكلام. لاحظت أنه لم يكن يسمعها. كان

ساهمـا حتى أن جيني ارتبكت: ماذا ستقـول له؟ ثم توجهت صوب مغسلة الصحون:

ـ سأغسل لك هذه الصحون.

ـ نعم؟؟

لم يكن يسمع ماقالته له. هذه الـ «نعم» خاصة بالعجزة. أكملت:

ـ لم تتناول فطورك بعد؟ هل أغلي لك بعض الماء؟

ـ لاتهتمي لذلك ياصغيرتي.

وكان طرق على الباب فقال بصوت المتهدج:

ـ تفضل.

ودخلت السيدة بينوبير حاملة على كتفها كنزة، وبدأت تقول:

ـ صباح الخير. جئت..

وتوقفت عن الكلام متجمدة لرؤيتها جيني:

ـ ماذا تفعلين هنا؟ ظننت أنك تتزهين (اتيتيل)

ـ نزهتها. ثم جئت.

ـ وما جئت تفعلين هنا؟

ـ جئت أصبح جدي وأغسل لهخ بعض الاواني.

ـ جدك محظوظ بك. ليتك خدومة هكذا في البيت فوق.

وجلست قبالة العجوز:

ـ وصلتني قائمة هذا الشهر. هل أحسم، كالمعتاد، المبلغ العائد لسكنك؟

ـ إفعلي ماتجدينه مناسباً. تعرفين رأيي في موضوع المدفن.

استغربت جيني مذعورة:

ـ المدفن؟ أي مدفن؟

ـ اسألي أمك ياصغيرتي. هذه فكرتها هي. فلتشرحها لك.

مسحت السيدة بينويير بعض الفتات عن الطاولة، وشرحت لابنتها بعصبية:

- عدنا الى الموضوع من جديد. . كنا نصحناه أن يشتري بالتقسيط مساحة صغيرة في مدفن عام. وكلما جاء وقت دفع القائمة الشهرية يعيد الثرثرة إياها.

- ماذا تقولين؟؟ مساحة في مدفن عام؟ ولماذا؟

- ها صرتما اثنين لثرثرة واحدة. أفهم أن تنفعلي هكذا في سنك. ولكن، في الثالثة والثمانين، على الانسان أن ينظر الى الامور بواقعية. المدفن، ستحتاجه العائلة ذات يوم. الاسعار ترتفع باستمرار، ومن الافضل الشراء الآن والدفع بالتقسيط. هذا فيه توفير.

- لكنه ياامي أمر مرعب.

- المرعب الا نتنبه لهذا الامر قبل الأوان. أنا وأبوك نحتاط لكل الامور سلفا. ولااريد أن أكون عالة على أحد حتى بعد غيابي.

تدخل العجوز:

- تنوين الذهاب في رحلة؟

انتفضت السيدة بينويير غاضبة:

- كارل بينويير، تخطىء اذ تأخذ هذا الموضوع بخفة وهزء.

- أوريليا، أوريليا،. لاتغضبي. تعرفين شعوري في هذا الموضوع.

- أعرف، ولكنني على حق. تعرف جيدا ماأريد قوله. كلنا على هذا الطريق. ولن ينجو أحد من هذا المصير.

انتهيت جيني من غسل آخر صحن، وقلبها منغص لهذا الحديث الجنائزي.

عند العشاء، كان السيد بينوييرمتوجها الى المائدة، حين لفتت

نظره ورقه معلقة على دفتر الملاحظات في المطبخ . أخذها وعرف نوراً خط والده العجوز:

«الانسان لايرحل . انه يموت . الانسان لاينطفىء . انه يتوفى» .

وكان التوقيع : «خرف عجوز في الثالثة والثمانين» .

وانتفض السيد بينويير مردداً :

ـ عدنا من جديد . ماذا دهاه؟ دائما يسعى الى المخاصمة .



١١

قالت السيدة بينويير:

ـ اليـوم، فاليـري حضـرت العشـاء. أمضت وقت ما بعد الظهر في المطبخ. تفضل، فرنكي، خذ حصتك ثم در بالصحن على الجميع.

ـ ماهذا؟

سأل فرنكي مستفهما فيما يأخذ بعض ملاعق من المحلول الرمادي عن طرف الصحن. ثم أعطى الصحن لشقيقه. فشرحت السيدة بينويير:

ـ كريـات من اللحم بالبهـارات الثـلاثـة. أكلة أندونسية. خذ معها بعض الارز.

علق فنس منشرحا:

ـ كم هو لذيذ!

سأل العجوز بتهذيب جم :

ـ أوريليا، هل لي بقطعة من البيفتيك المشوي؟

ـ بيفتيك، وفاليري بذلت كل هذا العناء لتحضير العشاء لنا؟

تدخلت فاليري :

ـ جدي، ذق من هذا. لقمة واحدة اكراماً لي.

ـ لم أحب يوما الطعام الغريب.

قالت غيل :

ـ سبب أولى، لكي تذوقه. انه لذيذ. صدقني.

ـ لاشك في ذلك. لكنني أفضل البيفتيك.

انتفضت السيدة بينويير:

ـ ولكننا لسنا في مطعم هنا. من لايأكل من الموجود، يحرم من العشاء.

حاولت جيني الوقوف مستدركة :

ـ أنا أهتم بذلك.

فنهرها أبوها :

ـ لاتتحركي من مكانك.

ـ أريد أن . . .

ـ وانا أريد أن تظلي جالسة وتخرسي. أحب ولو مرة واحدة أن اتعشى بهدوء.

أخفضت جيني عينيها صامته، فنهض العجوز وخرج. جمحت بجيني رغبة أن تفعل مثله، لكنها مضطرة أن تنتظر نهاية العشاء.

وظل العجوز أياما يقاطع المائدة مع العائله، حتى سألت السيدة بينويير يوما :

ـ الى متى ستطول هذه المهزلة؟

ـ أجابت جيني مدافعة :

ـ إنه يحضر طعامه بيده .

ـ فكرة ممتازة. كأنما هنا لا لأكل يكفي .

تدخل زوجها :

ـ أوريليا . . تعرفين والدي . لم يستطيع احتمال الحديث ذاك اليوم . لاتقلقي . على أي حال أنت لست مخطئة .

مساء الخميس ، بعد العشاء ، نزلت جيني عند جدها . كان يشوي قطعة اللحم ، وعلى الطاولة صحن مثروم ، فيه ثلاث قطع ناشفة من البسكويت . سألته مستغربة :

ـ هل هذا كل ماتأكل؟

ـ وهو كاف . في الاقل ، هكذا ، آكل ساعة أشاء . كنت دائما أجد أباك يتعشى باكرا .

ان علي أن أهتدي من زمان الى هذه الطريقة . المهم . مالنا ولهذا الحديث الآن . اسمعي : وقعت على خبر في الجريدة مذهل فعلا : التقاء أب بابنه بعد اربعين عاما من الفراق . تصوري .

وهم بأن يقوم الى الجريدة يريها اياها ، فهبت في هذه الحظة ريح عاصفة هزت البيت عنيفا . وانهمر مطر غزير ، فوضع العجوز الجريدة على زاوية من الرف فوق مشواة الطبخ ، كي يذهب متفقدا النافذة فيغلقها . وبلمحة بصر . جرى الذي جرى باسرع مما لم يكن أمام جيني الا لحظة للصراخ : وقعت ونقاط من الدهن على طباخ الغاز ، وطارت منه شرارة استقرت في الجريدة واشعلتها . وامتدت ألسنة النار سريعا الى حائط المطبخ صعودا حتى السقف . نادت جيني جدها بذعر شديد ، فالتفت صوبها مذهولا من الصدمة ، طالبا اليها أن تأتيه بشرشف ، فتناولت غطاء السرير ، استله منها العجوز وأخذ يطفىء ألسنة النار القريبة منه . وهرعت جيني الى كوب ماء ، افرغته على

الحائط، فازعة الى الباب مستغيثة بصوت مذعور.

بأقل من ثلاثين ثانية، كان أفراد الاسرة في القبو. وبسرعة أطفأوا الحريق في بدايته، الا فرنكي - وكان معه مطفىء حريق - راح يتسلى بضغط بعض الرغوة في الزوايا.

فتح السيد بينويير النافذة، وأمر الجميع بالخروج. الا أن العجوز، رغم عينيه المحمرتين من الدخان، وسعاله المخنوق بسببه، أجاب بصوت هادىء:

- لا. أنا سأبقى. حادث بسيط ومضى.

- كلا، ياأبي، تصعد معنا، ولا تبقى هنا.

وساندت السيدة بينويير زوجها:

- هذا الدخان يسيء الى رئتيك.

- لايمكنني أن أترك الغرفة بهذه الحالة. يجب أن أنظفها.

فاقترحت جيني فورا:

- وأنا سأساعدك.



فأطلق السيد بينوير قراره الحاسم:

ـ هذا المساء. لاأحد يلمس شيئا. يستحيل البقاء هنا، والا فالاختناق المحتوم. أبي، لاوقت الآن للجدال. الجميع الى فوق، وبسرعة.

اقتربت السيدة بينوير من العجوز ممسكة بيده:

ولكنك ترتجف، ياعماه، أفهم ذلك. أنا ايضا ترعبني النار. كيف تجرأت على الاطفاء؟

تدخلت جيني:

ـ هذا يحصل لكل انسان.

فنهرتها أمها بنظرة زاجرة.

في المطبخ، فوق، أجلست السيدة بينوير العجوز بتؤدة، وقدمت له كوبا من الحليب الساخن معلقة:

ـ هذا يفيد،ك ياعمي ويعيد اليك قواك.

والتفتت الى زوجهات مكملة:

ـ فرنك، أرى أن ينام والدك الليلة على أريكة الصالون، وفرنكي على السرير المطوي النقال.

أجاب العجوز:

ـ لاضرورة لكل ذلك. سأعود الى غرفتي تحت.,

ـ كلا ياأبي، تبقى هنا ولاتجادل في هذه المسألة. أرجوك.

في اليوم التالي، حين عادت جيني من المدرسة، وجدت في القبو جدها ومعه فنس. كان هذا الاخير معلقا في أعلى سلم، ويغسل الجدران، فيما العجوز يحمل مكنسة يضرب بها الارض في الزوايا، والنوافذ مفتوحة والباب، لادخال الهواء بكثرة الى المكان، والاثاث

مجمع كله وسط الغرفة، ليطال فنس عن السلم وبادر العجوز:
ـ جدي، أرجوك، دع هذه المكنسة. هذا ليس عملا تستطيعه. إصعد مع جيني الىء فوق، واترك لي الباقي.

ليلة ثانية على التوالي، نام العجوز في غرفة السهرة، وفرنكي على السرير المطوي النقال. متذمراً من البرد. وجعل فنس وفاليري يرممان، باتقـان، شقـة العجـوز، مكملين أعمـال الطـلاء والتنظيف طوال الاسبوع، والعجوز يتردد عليهما متسائلا متى ينتهي كل ذلك.

في البـدء، كان يمضي الـوقت عابـرا بين المطبـخ والقبـو، مراقبـاً عمليات الترميم، وذارعا البيت جيئة ورواحا على مراى من كنته.

وراحت الايـام تمضي، والارهـاق يحفـر خديه، أخذ يسعل بشكل خطر، الىء أن أصبح معدوم الصوت، واضطر الى ملازمة الفراش.

لازمته جيني طوال الوقت، لكنه كان من الوهن بحيث لم يكن يبدي أية بادرة. لم يعد يستطيع الوقوف، حتى أن السيدة بينوبير كانت ترافقه في انتقـالـه الى الحمـام. كان يمضي نهـاراته بثياب النوم، اشترتها له كنته، ملائمة لسنه والطقس، يختبىء فيها جسمه الهزيل النحيل.

مرة، رافقته الى الحمام، وبادرته:
ـ لاتقفل الباب من الداخل. اذا احتجت أمرا، نادني، أنا هنا عل الباب.
ـ لاتزعجي نفسك. سأتدبر أمري. , شكرا لك.
ـ لاازعاج ياعمي. أنت مريض، واجبي الاهتمام بك.

وكم كان ذلك يؤلمه: تذكيره بأنه مريض.



١٢

ظل العجوز طريح الفراش عشرة أيام. وكانت رائحة الطلاء الطري تنبعث في كل البيت، لان فنس وفاليري لم يكونا يتوقفان عن العمل، وفنس مرتاح الى رؤية الشقة تتخذ رونقا نظيفا.

منذ الحريق، لم تنزل جيني الى تحت مطلقا. وذات مساء، قررت القاء نظرة، فوقفت في الشقة مذهولة لرؤيتها جديدة كليا وذات جاذبية جميلة. وكان غطاء يغمر أثاث العجوز في وسط الغرفة، بعد نزع القماش المهترىء.

تحولت الجدراان الى مايشبه لون الزبدة، فيما الابواب والوطائد زرق على اخضرار، وغرفة الحمام صفراء. كانت فاليري تحمل ريشة وتطلي ركائز النوافذ. وكانت جيني تسرح نظرها في اينما كان بذهول.

فبادرها فنس بمرح :
ـ أهلا جئت تساعديننا؟
ـ كلا . جئت أخذ غرضا لجدي .
وغاصت جيني تحت الغطاء تبحث في الادراج ، حتى أخذت ورق اللعب . وهمت بالخروج فناداها فنس :
ـ هاي ، جيني ، تعالي انظري أين صرنا . نكاد ننتهي .
كان في يده مفك للبراغي يثبت الرفوف الجديدة في المطبخ . فلفت نظر جيني أن مغسلة الصحون نظيفة لماعة ، والبلاط يلتمع كالمرآة . بادرها فنس :
ـ ماذا؟ أيعجبك؟
ـ المهم أن يعجب جدي .
ـ جدي؟ وما دخل جدي به بعد؟
ـ ولكن هذه شقته . ألست تقوم بكل هذا العمل لاجله؟
تطلع بها شقيقها مستغربا :
ـ جيني . . ألم تفهمي بعد؟ لايمكننا أنا وفاليري أن نظل مخيمين طوال عمرنا . جدي ليست به حاجة الى كل هذه الشقة . نحن نحتاجها . لذلك . . .
ـ لم أفكر بهذا . أعرفك بارعاً في السلاسة وصولا الى غايتك . أنت مراوغ .
وهربت الى الخارج غاضبة .
وهربت الى الخارج غاضبة .
في اليوم التالي ، حين نزلت جيني الى الشقة ، فوجئت بأمها تغرز ثيا ب العجوز . فبادرتها :
ـ جيني ، جئت تساعدينني ؟
ـ كلا ، جئت حتى . . .

لكنهـا لم تكمـل . تسـاءلت ، فعلا ، عما جاءت تفعله ، وأخذت ، معصورة القلب ، تراقب أمها تحمل المعطف الاسود وتتفحصه بدقة ، وتقول :

ـ هذا معطف لايرضي متسكع شريد . سأشتري له معطفاً جديداً .

وكان مصير المعطف كمصير سواه من الثياب المكومة في صندوقه . ثم حملت بأبهامها وسبابتها أحب الكنزات الى العجوز ، وعلقت :

ـ وهذه الخرقة البا لية . . الى الصندوق فالرمي .

تسـاءلت ج يني اذا كان جدهـا عالمـا بمـا يجـري . صعدت اليه . فألفتـه رازخـا تحت كومـة من الاغطيـة ، مغمض العينيين ، الى جانبـه على الارض صحن من الحساء ناقص قليلا . همست له :

ـ جدي ، هل تنام؟ هل تشعر بتحسن ؟

ـ كلا .

ـ ألا يزال صدرك يؤلمك؟

أجـابهـا بهـزة من رأسـه أن : نعم . فجلست جيني الى جانبـه ، تتنازعها رغبتان : أن تأخذه بين ذراعيها كطفل صغير ، وأن تهزه صارخة به :

ـ جدي ، انهض ، لاتستسلم . أرجوك . انهض .

حلمت بكابوس مرعب : تركض ، فال ، في شارع مظلم ، يدها في يد جدهـا ، ويعبـران الشـارع يهزأ منها فتيان يمتطون دراجات صفراء . جمحت بها رغبة أن تصرخ بجدها :

ـ جدي ، أركض بعد ، أسرع ياجدي .

استوت في سريرها مذعورة ، قلبها يطرق بعنف . كان صمت ثقيل يخيم . على البيت .

إيتيل تشخر في سريرها ، وجيني تكاد تختنق . أرادت أن توقظ جدها ،



لكنها تمالكت نفسها : الفكرة رديئة أن توقظ عجوزا مريضا . لم تعد تتحرك . عادت الى النوم .

صباح اليوم التالي ، حين دخلت الى المطبخ ، وهي مازالت تفكر بذلك الكابوس ، بادرتها أمها ملهوفة :

ـ جيني ، نادي فاليري بسرعة .

وقفزت الدرج أربعا اربعا . كان فنس وفاليري يتناولان الفطور بهدوء قرب النافذة ، المكان الاحب لجدها . ونادت :

ـ فاليري ، مهاتفة لك من الضاحية .

ـ هذه امي .

قالتها فاليري وقفزت الى الدرج فلحق بها فنس .

حاولت جيني تخيل الحوار : «عودي ياابنتي ، اشتقنا اليك كثيرا . مكانك هنا بيننا» .

تناولت فاليري سماعة الهاتف بحرارة ولهفة :

ـ آلو . ماما . . أنت؟ نعم . . طبعا . . . نعم . . . فهمت . . نعم . . أقسم لم . وأقفلت الخط باكية . فبادرتها السيدة بينويير :

ـ هل الامور أفضل مع والديك؟

ـ قليلا . لم يرضيا ، بعد ، على زواجي .

أكد فنس :

ـ تدريجيا يرضيان .

وأكدت جيني :

ـ أنا واثقة أنهما متلهفان لرؤيتك أنت وفنس . هل تنوين الذهاب قريبا؟

ـ الذهاب؟ الى اين؟ الشركة التي يعمل فيها والدي ستوفده عاما كاملا الى فرنسا ، وسيصطحب معه العائلة كلها .

تمتمت السيدة بينويير :

ـ محظوظان

هتفت جيني :

ـ يعني أن منزل والديك سيفرغ ؟

ـ كلا . والدي أجره .

ارتمت جيني على كرسيها يائسة . وراحت تفكر : «كم بلهاء أنا حين فكرت أنهما سيغادران هاهما باقيان . وجدي لن يعود أبدا الى زاويته الحميمة» .

بعد الظهر، جاء لمام خرق، فحمل الصحف القديمة، وجاءت شاحنة كبيرة فحملت الصناديق المليئة والاثاث وحتى الاسطوانات القديمة . ولم يبق الا الكرسي الهزاز، لان السيدة بينوبير قررت تركه إذ يذكره بالايام الماضية .

قبل أن تنطلق الشاحنة، قفزت جيني :

ـ لحظة من فظلك، نسيت شيئا في الصندوق .

انزعج سائق الشاحنة منها، تفتح الصندوق المقفل وتفتش فيه ثم تقفله كيفما اتفق، بعدما تسحب منه المعطف العتيق .

تطلع السائق اليها هازئا :

ـ ماذا؟ هل هذه آخر موضة؟



١٣

ذات ليلة، وهي تنهض الى الحمام، لمحت جيني نورا في المطبخ. كان جدها يحتسي كوبا من الشاي، ملتحفا غطاء صوفيا. كانت الساعة الثانية صباحا. همس لها: «جيني»، فجلست الى جانبه. كان أفضل حالا. ولم يعد يطيق الفراش الذي تلح السيدة بينويير عليه بملازمته. كان يسيح في المنزل، متكئا على الجدران والاثاث. وكانت السيدة بينوير، في الليلة الفائتة، تذمرت من كونها مسجونة في منزلها، لقلقها على العجوز وملازمتها المنزل من أجله، كي لايوبخها ضميرها لو هي تركته.

قال العجوز لحفيدته بكل حنان:

ـ جيني، خذي بعض الشاي.

وأخذ يسكب لها، فاندلقت نقاط منه ساخنةعلى الطاولة. كانت

شفتاه ترتجفان كل الوقت، كما لو ان الكلمات تخونه قبل أن يتلفظ بها.

- ألا تتمكن من النوم ؟

- لاتقلقي. بعض اظطراب ويزول.

أخذت جيني يده. حاولت مؤساته، فخانتها الكلمات.

في الليلة التالية، نهض العجوز ليلا كذلك. سمع خطواته ابنه فخال أن لص في المنزل، وصرخ في العتمة:

- من هنا؟

ونهض من سريره قافزا، فاصطدمت رجله بكرسي، وراح يصرخ غاضبا بصوت حانق أيقظ كل من في البيت. وحين اكتشف أن تلك خطوات أبيه، غضب أكثر. وصحا صباحا متوتر محمر العينين فغادره أباه العجوز فيما يقلب صفحات جريدته:

- قل لي ياأبي: هل يحدث لك أن تتمشى هكذا في المنزل؟

- أجل، حين لااستطيع النوم، ولاأطيق البقاء في السرير.

- إذن، سأتمنى عليك الانقطاع عن ذلك. واذا كنت لاتستطيع النوم ليلا، فنم نهارا. يمكنك ذلك بسهولة. أما المشي في المنزل ليلا. فخطواته تقلق الجميع.

- تؤلمني مفاصلي فأضطر الى تحريكها بالمشي.

اقترحت السيدة بينوبير:

- منذ اليوم، تشرب الحليب الساخن قبل النوم، يساعدك على أن تغفو.

تدخلت جيني بلهجة حادة:

- ولكن. . . أية غلطة كبرى في ذلك؟

تنبه السيد بينوبير فجأة:

- جهاز راديو. هذا مايلزمك. كان علي أن أفكر بهذا من قبل. حين

يصيبك الارق، تستمع الى الراديو. تستعمل السماعة الصغيرة في أذنك فلا تزعج احداً.

ذات ليلة، وكان العجوز أرقا ويستمع الى الراديو، أفلتت السماعة فأخذ صوت الموسيقى العالي يزعق في أرجاء البيت. سارع العجوز بأصابعه المرتجفة الى تخفيض الصوت، فتدحرج منه الجهاز على الارض محدثا ضجة كبيرة.

استيقظت جيني مذعورة، وأخذت ايتيل تبكي، وغيل، بصوت مزعج، تستفهم عما يجري. لبست جيني جواربها بسرعة فائقة، وهرعت الى غرفة فرنكي. كان قد صحا جميع من في البيت، والعجوز يعتذر لابنه:

- أنا آسف يافرنك.

فزمجر السيد بينوبير:

- لابأس. عودوا جميعكم الى النوم. وأنت أيضا، جيني.

- لحظة واحدة يا أبي.

واقتربت من جدها تطمئن عليه:

- هل انت بخير؟

أشار لها برأسه أن نعم، فزعق أبوها:

- جيني.. الى النوم. أحب أن أنام من دون هزة أعصاب.

يوم الاحد، بقيت جيني مع جدها في البيت وحدهما: ذهب والداها في نزهة بالسيارة، مصطحبين غيل وايتيل، وراح فنس وفاليري عند اصدقاء لهما، وفرنكي الى الركض كعادته. أخيراً، هوذا هدوء البيت تام. وكانت جيني قد ضجرت من حديث افراد الاسرة وحواراتهم عن جدها، حتى باتت تحفظ غيبا مايوجهون اليه من كلمات.

أخذت ورق اللعب، ووضعت ماء في الغلاية على النار. في الخارج، أرتال السيارات مضاءة المصابيح لاختراق حجاب المطر الكثيف.

جلست جيني قبالة جدها تفكر في جلسات بعد الظهر السعيدة التي كانت تمضيها معه، والتي ستمضيها بعد.

فجأة، فرك العجوز يديه صارخا:

ـ ربحت.

كان لابسا ثيابه، وفوقها الكنزة التي اشترتها له السيدة بينويير، وغير مرة شد بعنقها الذي كان يضايقه.

سمع تحت باب يغلق. انهما فنس وفاليري رجعا. حانت نظرة سريعة من جيني الى العجوز: لم يتحرك. فهو لم يعد يتكلم عن شقته. بادرته:

ـ هل تقوم بجولة ثانية؟ هذه المرة بخمسين فلسا.

فمازحها:

ـ هذا تهور. انتبهي فانني قررت أن أغلبك.

مر الوقت سريعا حتى أن جيني قفزت عندما سمعت باب المدخل ينفتح.



دخلت السيدة بينوير مستغربة :

- أما زلتما تلعبان؟ هذه ساعة العشاء . جيني أفسحي عن الطاولة . عمي ، هل تتناول معنا اللحم المشوي؟

- لا ، شكرا ، أقضم بعض الطعام .

مرت السيدة بينوير وداعبته على وجهه بمرح :

- دائما معارض . حسنا . كما تشاء .

دخلت غيل حاملة إيتيل على ذراعيها ، ووراءهما السيد بينوير حاملا كيسا مليئا ، وشعره مبلل بالمطر . وقفت غيل الى المرآة تتفحص وجهها ، وبادرت جيني فجأة :

- احزري الى اين ذهبنا .

فصرخت أمها من المطبخ :

- غيل . . لاتنسي ماذا قلت لك .

سألت جيني :

- الى أين؟

- لن أقول لك .

وببادرة لافتة منها ، اقترحت على جدها مساندته للانتقال الى غرفته . . فهمهم ، هو غير المعتاد على هذا اللطف الزائد من غيل :

- لابأس . سأتدبر ذلك وحدي . أشكرك .

ونهض خارجا يجر رجليه . فحملت جيني الغلاية الى المطبخ ، وسألت أمها :

- الى أين ذهبتم؟

- في جولة .

- من أي صوب؟

- رحنا نبحث عن أراض مفرزة .

كانت السيدة بينويير تجيب ابنتها فيما تحضر السلطة وتضع القدر على النـار، وتخـاطبهـا بلهجـة تائهة، ففهمت جيني أن أمها لاتريد اعلامها بالامر. وأمرت الام:

ـ جيني، ضعي الصحون. غيل، انزلي أسألي فنس وفاليري اذا كانا يتناولان العشاء معناء. وماهي الا لحظات حتى وصل العروسان، فبادر السيد بينويير ابنه:

ـ فنس، هل تحتسي الجعة؟

وقام الى البراد يجلب منه جعة لفرنكي كذلك فيما يمازحه:

ـ انتظر حتى تبلغ الثامنة عشرة حتى تطلب مثل هذا الشراب.

ودار الحـديث في رتـابته العادية. السيد بينويير طلب من فنس أن يشحذ السكين، وحاول فرنكي تناول قطعة من الخبز، فاستحق صفعة على يده، وجيني صامتة. كانت تحدس بأمر ما، سيء تجهله. يبدو أن تلك الجولة العادية لم تكن عادية، بل كانت لها غاية ما، ذات علاقه بجدها.

كان دور غيل في رفـع الصحون، وجيني تحمم ايتيل، ففعلت، ووضعتهـا في سريرهـا وخرجت وهي تطفىء الضوء في الغرفة. نادتها إيتيل، فعادت اليها وخاطبتها من شق الباب:

ـ نعم ياصغيرتي.

أشارت اليها الصغيرة أن تعود، فوعدتها:

ـ أنا باقية هنا عند الباب حتى تنامي.

وأستـدارت جيني لتقف في الممشى. بعـد ذلك خرجت غيل م الحمام مقطبة الوجه، فبادرتها جيني:

ـ اذن، كانت جولة ممتعة . .

ارتبكت غيل وسارعت بجواب آخر:

ـ انظري هذه الحبة في ذقني.

ـ ربما أكلت البوظة .
ـ كالعادة، أخذت شراب الاناناس .
ـ الاتقولين لي اين ذهبتم؟
تثاءبت غيل :
ـ أف . . تنزهنا . . . ما كان يجب أن أُلمس هذه الحبة . هل هي كبيرة؟
ـ عادية . اذن، الى اين ذهبتم؟
ـ مستحيل . قلت لامي انني لن اخبرك .
ـ أخبريني . لن أفشي بذلك .
ـ أسالي أمك اذا كان الامر يهمك الى هذا الحد .
ـ يجب ان تخبريني .
ونقدمت من غيل وراحت تهزها بعنف، وتشدها من كتفها .
ـ أتركيني . ستمزقين كنزتي .
ـ أتركك اذا اخبرتني .
ـ بل اخبرك اذا تركتني .
تركتها جيني، فأخذت غيل تروي :
ـ ذهبنا نتفحص المنازل قيد البناء من جهة النهر . بعضها جيد . أكلنا المثلجات . وفي طريق العودة، توقفنا على الهضبة قرب «القصر» حيث بيت العجزة . هذا كل شيء . بقينا لحظات أمامه، لكننا لم نترجل من السيارة . تناقش والداي في أمر نقل جدي الى هناك، وقررا العودة لمراجعة المديرة، الاحد المقبل .
ـ هل هذه الحقيقة كلها؟
ـ كلها . هكذا قالا . معهما حق . جدي بدا يعجز ويخرف .
ـ تقولين؟؟؟
ـ تعرفين جيداً ماذا اقول . أمي منشغلة بالتفرغ له فوق مايتسع

وقتها. وهو بدأ يتعبنا. دائما يهمهم بصوت خفيض لانفهمه. ثم، مؤخرا، هذه العادة في النهوض ليلا وايقاظ الجميع بحجة انه لايستطيع النوم. وأكثر من هذا: بات على امي اللحاق به كلما دخل الحمام.. هل هذا معقول؟

- غيل، أسكتي. هذه وقاحة.

وهرعت تختبىء في الحمام، مقرفصة خائفة. إذن يريدون التخلص من العجوز ونقله الى المأوى. يسمونه «القصر». مابشع هذه التسمية له. دائما لايسمون الاشياء بأسمائها. وأمها، قبل أيام، تحدثت عن «الراحة الابدية» حتى صح لها العجوز موضحا:

- يعني، تريدين أن تقصدي: الموت.

لم يكن لدى جدها ما يعيقه عن استعمال الكلمة المحددة للمعنى المحدد.



١٤

التقت جيني بصديقتها رودا. كانت هذه مشعة، وتلك حزينة.

ـ مرحبا جيني.

ـ أهلا رودا.

ـ مابك؟

ـ ذهب والداي في جولة أمس بالسيارة. و. .

ـو ماذا؟ مالامر؟

ـ الامر محزن يارودا. ذهبا يفتشان عن مأوى للعجزة.

ـ ينقلان جدك اليه؟

ـ نعم.

ـ وكيف هو هذا المأوى؟

ـ لاأدري. لم أكن معهما. ومايهم كيف هو؟

ـ بل يهم . بعض المأوى حزين كئيب . آمـل أن والـديك اختـارا مأوى مريحا .

ـ مأوى ، . . . مريحا؟؟

ـ جيني . . لاتصـرخي هكـذا . ولاتلبسي هذه الحـالـة . قد يكـون جدك مرتاحا هناك .

ـ أمجنونة أنت؟

ـ ولم لايرتاح ؟ سيلتقي هناك بمن في سنه .

ـ إخرسي . أنت لاتدرين ماذا تقولين .

تركت جيني صديقتهـا وابتعـدت راكضة . كان ذاك الاسبوع طويلا جدا ، حتى جاء يوم الاحـد . أعلن والـداهـا أنهمـا ذاهبـان في جولة ، وأخذا معهما ايتيل . ثم سألا :

ـ هل من يريد المجيء معنا؟

ـ أنا .

صرخت غيل وهي تعقد المنديل حول عنقها . فالتفتت والدتها الى جيني:

ـ وأنت . . تبقين طبعا مع جدك .

ـ الى أين تذهبون؟

ـ لاالى مكان معين .

وصرخ السيد بينويير:

ـ هلموا بسرعة . سنتأخر . ماذا ، جيني ، أتبقين في المنزل؟

ـ لا . أذهب معكم .

لم يصـدر من أحـد اي تعليق . صعد الجميع الى السيارة : الولدان في المقعـد الامـامي ، والشقيقـات الثـلاث في الخلفي . حيـوا فنس وفاليري على بابهما وهم ينطلقون ، فعلقت الوالدة :

ـ طلبت منهما أن يبقيا في المنزل . من أجله «هو» .

وفكرت جيني «هو» . جدي لم يعد له اسم . صار اسمه «هو» . قال الوالد :

ـ الطقس اليوم افضل من الاحد الماضي .

كان يقود السيارة بطيئا، ويتأمل المنازل التي تبنى . فجأة قالت الوالدة :

ـ أوه . . ما أجمل نوافذ هذا البيت .

ـ أوريليا . . انظري مشواة الفحم هذه . ماذا لو نبني واحدة مثلها؟

ـ ألاتعلم أنها ممنوعة في منازل المدينة؟

كانت جيني تتثاءب من الضجر . . ومن هذا الحوار البليد . وفكرت بما روته لها غيل ، فانتفضت على مقعدها : ولكن . . أين يكون هذا «القصر»؟

امتدت الجولة نحو ساعة ، والداها يعلقان كلما مرا ببناية أو بيت جميل . أحست بعروق ظهرها تؤلمها . هل تكون غيل كذبت عليها؟ هل تكون تخلت عن البقاء مع جدها من دون مقابل؟ أخذت تداعب إيتيل ، وهذه تضحك حتى القهقهة . التفتت السيدة بينويير الى الوراء :

ـ جيني ، كفي عن إزعاج إيتيل .

ـ لا أزعجها بل اداعبها .

عند هذا ، استدار الوالد في منعطف الى اليمين ، صوب طريق مليء بالحصى ، قليلا وتوقف ، وأوقف المحرك . في آخر الطريق ، مبنى كبير أخضر ، حوله كراس مبعثرة على العشب الأخضر النظيف المنسق . الى يمين لافتة تحدد مواعيد الزيارات . فكرت جيني : قد يكون هذا هو «القصر» . وأحست بوهن في مفاصلها . فقالت الوالدة :

ـ انتظرنا هنا في السيارة . سنقابل المديرة ونعود بسرعة .

وضع الوالد مفاتيح السيارة في جيبه ، وهندم شعره في المرآة ، وقال

وهو ينزل من السيارة متوجّهاً الى المبنى الأخضر:
-لن نبقى طويلاً.
قفزت جيني وراءهما:
-أنا أجيء معكما.
انتهرها والدها:
-لا. إبقي هنا.
فقالت الوالدة:
-غيل، نزهي إيتيل على العشب في هذا الطقس الجميل. وأنت، جيني، إبقي معهما.
-بل أنا أريد أن أجيء معكما.
كارل، ابنتك لا تسمع مني. قل لها أنت.
جيني، إبقي هنا. عندنا موعد مع المديرة، وقد نتأخر.
فصرخت جيني:

-تريدون أن تسجنوا جدي هنا.
-ما هذه الطريقة في الكلام، لماذا نسجنه؟ نحب أن يأتي الى هنا. في هذا المكان جميع وسائل الراحة.
وحمل السيد بينويير منديله الى جبينه يجففه قائلاً:
-جيني ابقي هنا يا حبيبتي.
ثم طوى منديله ووضعه في جيبه، وأكمل:
-اسمعي يا بنيتي. انه والدي. ولم أتخذ هذا القرار بطيبة خاطر. ولكن لا خيار لنا. لماذا تفكرين به وحده لا بنا أيضاً. عودي الى السيارة يا صغيرتي، وانتظرينا.
لكن جيني أكملت مرافقة والديها فانتهرها والدها:
-قلت لك عودي الى السيارة. هذه القضية لا تعنيك.

ـبلى. كل ما يعني جدي يعنيني.

حاولت أن تخفي اضطـرابهـا، لكن صوتهـا كان أجهش بالبكـاء، فتدخلت أمها:

ـدعها ترافقنا. قد يكون هذا أفضل، وترى أن المكان أفضل.

دق السيد بينويير جرس الباب، ففتحت آنسة بالثوب الأبيض، وبادرتهم:

ـتفضلوا. لا حاجة لدق الجرس. الباب دائما مفتوح في أوقات الزيارات.

فحددت السيدة بينويير:

ـنريد أن نقابل السيدة (بور ماكارثي). عندنا موعد معها.

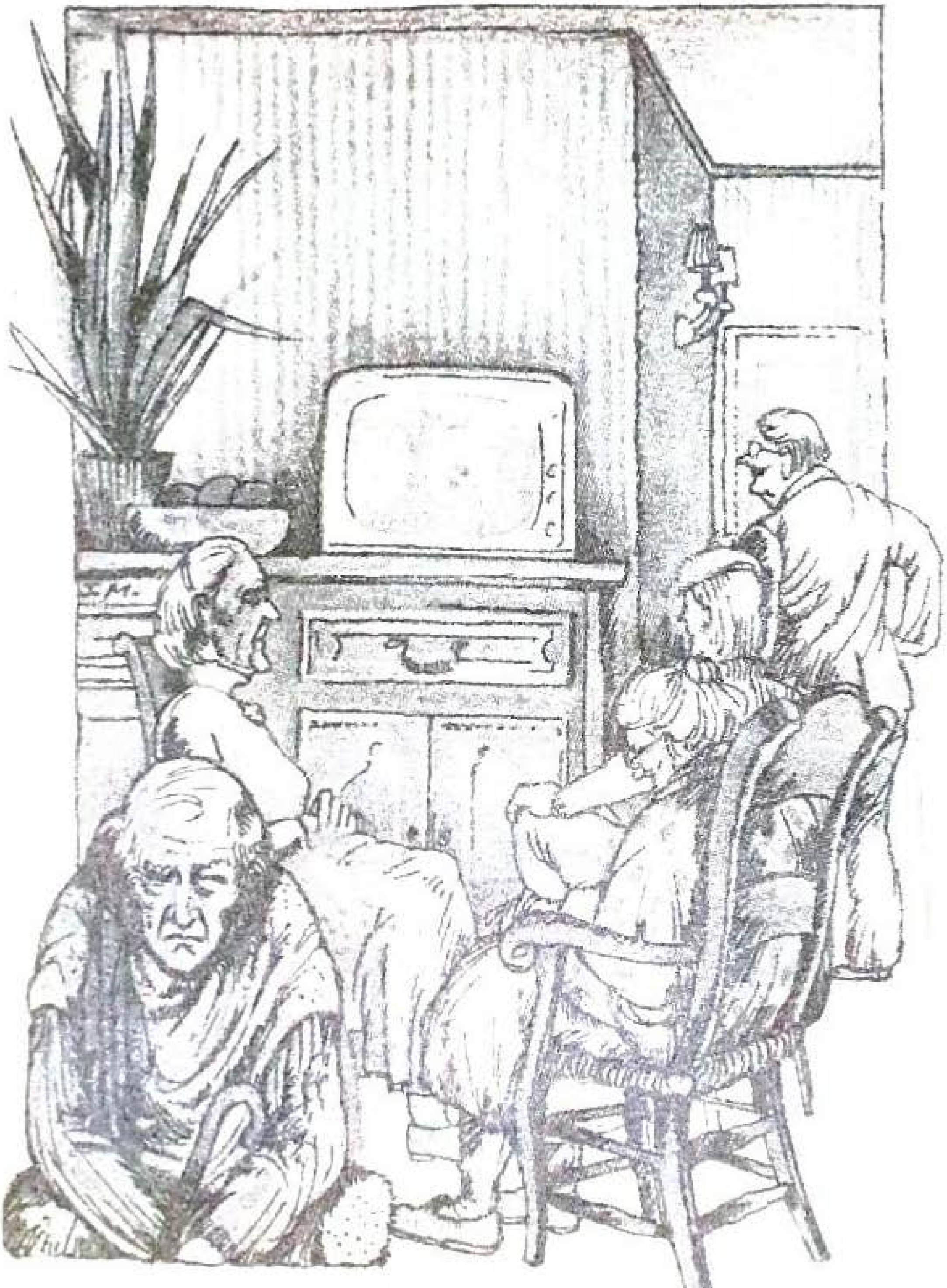
كان البهـو كبيـراً، ذا درج ضخم يؤدي الى الطـوابق. على أحـد الجدران، معاطف معلقة وستر بترتيب زائد، وفق مشاجب مرقمة. الى اليمين، باب كبير مشقـوق. تقدمت منه جيني، فشاهدت صالة كبيرة ذات فرجـات واسعـة، وممتلئـة مقاعد وكراسي وطاولات. في الطرف الآخر، أشخـاص يتـابعون برنامجاً تلفزيونياً. في أحد المقاعد، تغفو سيـدة شيبـاء، يستريح ذقنها على صدرها. قرب الباب، عجوز جالس بهـدوء على منضـدة، يلبس قبعـة مخططـة. رأى جيني، فابتسم لها. بتحية «صباح الخير»، فأحست بأنها أقلقت هدوء الجميع.

تقـدمت سيـدة ذات ثوب أبيض معـرفـة بنفسها: «أهلاً وسهلاً. أنا السيدة بور ماكاثي».

كانت زكيـة العطـر. وأكملت: «هـلا تبعتموني؟ تفضلوا». وحادت لتفسح ممراً. ثم جلست الى مكتبها. توجهت جيني الى النافذة التي تطل على الساحة الكبرى.

ابتدأت السيدة بينويير بالكلام:

ـ هذا المكان، في الواقع، أعجبنا كثيراً.



كانت السيدة ماكارثي جالسة مستقيمة، كالعدالة، لابسة قميصاً منشى، وتاركة على قماشة مكتبها الخضراء، يدين اصابعها مقلمة الأظافر بهندام أنيق. راحت تشرح:

ـصحيح أن «القصر» ليس بيت عجزة عاديا. كان هذا الجناح تابعاً لقصر (سيروس وستورد) الملياردير الشهير الذي جمع ثروته من معجون الأسنان. هو نفسه رسم الخرائط حتى في أصغر تفاصيلها. هنا خمس عشرة غرفة، وصالون كبير، وغرفة طعام كافية لتستوعب جميع أفراد أسرتنا الصغيرة. أعتقد أن في نيتكما إيفاد أحد أقربائكما الينا.

ـنعم. أبي. في الثالثة والثمانين. وبدأ يسبب لنا بعض المتاعب.

أكملت السيدة بينويير:

ـ هو معنا منذ ثلاث عشرة سنة. نهتم به كثيراً. لكنه بدأ ببعض الخرف.

عقبت السيدة ماكارثي:

ـفهمت. يهمني اعلامكم أن العجزة عندنا يلقون معاملة ممتازة. أنا ممرضة مجازة، وكذلك مساعداتي. وللبيت طبيب مداوم، وفيه جميع متطلبات الراحة والعناية الصحية. هل والدك مقعد؟

ـ كلا، ما الى هذه الدرجة. لكنه خرف قليلاً.

انتفضت جيني:

ـخرف؟؟؟

فانتفض أبوها:

ـجيني....

وحسمت السيدة ماكارثي:

ـيعني... هذا طبيعي في الثالثة والثمانين. اذن: أعطياني

معلومات عنه. هل هو رافض الحياة الاجتماعية؟ هل هو مزعج؟ هل هو عنيد؟ مشاكس؟

أكملت السيدة بينويير:

- له تصرفات غير متوقعة. تجب مراقبته باستمرار. هذا منهك. انما... ولم تكمل عبارتها. تناولت السيدة ماكارثي كتيباً ناولته الى السيد بينويير شارحة:

- هو ذا نظامنا الداخلي يلتزم به نزلاؤنا. وعلى الصفحة الأخيرة تعرفة التكاليف. أخذ قلب جيني يضرب بقوة. هذه المرة صار الأمر جدياً، وسينفذ والداها تصميمهما.

أكملت السيدة ماكارثي:

- في العادة أن نملأ ملفاً كاملاً لكل من نزلائنا: الصحة، المزاج، نظام الأكل، ونقوم بجميع التسهيلات لهم. من هنا، مثلاً، أن جميع الكراسي مرقمة: يأخذ كل شخص كرسيه، مما يعطي الجميع الشعور بالطمأنينة، ويبعد عنهم المشاجرات. هكذا أهيء لهم مناخاً ينتهون فيه بصفاء. ويمضون أيامهم الأخيرة معنا هانئين سعداء.

علق السيد بينويير:

- لكن لوالدي، بعد، حيوية عادية. فهو يحب التنزه والقراءة...

فأكدت السيدة ماكارثي:

- هذا طبيعي. ثمة طرق للشيخوخة بقدر ما ثمة شيوخ. من نزلائنا من يحبون لعب الورق، ومنهم مشاهدة التلفزيون، وبينهم من هم كتاب. السيد مونك مثلاً يراسل عدة صحف في المنطقة، وأسلوبه لافت مميز. ومنهم من يفضلون النشاطات في الهواء الطلق، فلا تطل الشمس حتى يهرعوا الى الخارج يمارسون ما تساعدهم عليه قواهم الجسدية. ومنهم من يبقون جالسين طوال النهار، يروون لنا ذكريات طفولتهم، سعداء، بأن نصغي اليهم، فيجنحون أحياناً الى بعض

الشطط والمبالغة، ولا ينتبهون الا حين نعيدهم الى الواقع.

ابتسمت السيدة ماكارثي وأكملت:

- اذا قررت أن تترك لدينا والدك، أطلب اليك ملء هذا الطلب، موضحاً ما يهمه من مواضيع ونشاطات، لكي نلبيها له، فيشعر عندنا بلالفة ولا تنهشه الوحدة. آمل أن أكون أجبت عن جميع استفهاماتكم.

ونهضت السيدة ماكارثي واقفة، فتجرأت السيدة بينويير على السؤال:

- هل يمكن أن نقوم بجولة؟

- طبعاً، هو ذا الصالون.

وتقدمت ففتحت الباب الكبير، وأطلت على الصالون فبادرت الجميع:

- صباح الخير. . . كيف أنتم اليوم؟

واقتربت من العجوز التي كانت جيني رأتها وهي داخلة، فداعبتها بيديها قائلة:

- كيف كانت قهوتك؟ أراهن أنك طلبت فنجاناً آخر.

ثم توجهت صوب عجوز اخر مسمر في كرسيه، يغطي رجليه غطاء صوفي، وقالت له:

- ماذا الان؟ هل تشعر بتحسن؟

وتناولت السيدة ماكارثي من جيبها منديلاً ورقياً ومسحت له ذقنه من آثار الروماتيزم:

- نضطر أحياناً الى معاملتهم تماماً كالأطفال.

قالت هذا وداعبت عجوزاً من شعرها وأردفت:

- هل رأيتم حوض السمك؟ أهدتنا اياه أسرة إحدى نزيلاتنا.

وبعد لحظات أكملت:

لا أعتقد أن في أي مكان آخر صالةً كبرى مجهزة كصالتنا. وعندنا، بعد، مكتبة عامة أجاب السيد بينويير:

- نعم. والصورة نقية واضحة.

- فلننتقل الى الغرف. أنا واثقة أنها ستعجبكم. عندنا بضع في الطابق الارضي لمن لا يمكنهم التنقل. أما نزلاؤنا إجمالا. فموزعون على الطوابق، ويفيدهم - صحياً - الصعود والنزول على الدرج.

فجأة علا صراخ، فهرعت السيدة ماكارثي:

- ما الأمر ماذا حدث؟

وهرعت الى عجوز راحت لها دقات خفيفة على ظهرها، فبادرتها هذه وفي عينيها دموع:

- خذوني من هنا. لا أريد البقاء هنا.

- لماذا يا برشا؟ ستحمل اليك الآنسة بيرد حالاً ما تشربينه.

- لا أريد من مأكلكم ولا من شرابكم. أريد أن أغادر هذا المكان. دعوني أذهب.

وأشارت السيدة ماكارثي الى آل بينويير أن يتركوها ففعلوا. وبعد لحظات التحقت بهم

- برشا بيننا منذ عشر سنوات. انها مدرسة قديمة، ولها، كسواها، أيامها الهنيئة وأيامها العصبية. هل نصعد الى الطوابق؟

همت جيني بأن تسبق والديها في الصعود، فعاد الصراخ من جديد، مما جعل جيني ترتجف، كأنها تسمع صراخ حيوان يساق الى الذبح. راح قلبها يضرب قوياً، وأحست بقواها تخور. ما الفائدة من مواصلة الزيارة؟ وهل هذه حديقة حيوانات لتحلو المشاهدة؟

هرعت الى الخارج. كانت غيل تغمر إيتيل الصغيرة بالأوراق

الخضر والصغيرة تضحك مسرورة. بادرتها غيل :

أين هما؟

-في الداخل.

-زرت الداخل؟ كيف رأيته؟

كانت جيني مقطوعة الأنفاس فارتمت على العشب الأخضر، خبأت فيه رأسها. جمحت بها رغبة أن تصرخ بأعلى صوتها كما حين كانت طفلة. لكنها تمددت على الأرض منهكة. وأخذت تفكر: هكذا إذن، والداها سيقودان جدها الى «القصر». لن يحتاجا الى كبير جهد، بل سيبدوان ان هذه المرة أيضا ملحاحين: «هلم معنا وألق نظرة»، وسيجيء معهما العجوز عابساً. حتى إذا بلغا هذا المكان، يدعانه فيه كرزمة قديمة. وهذه خطة نجحا بها سابقاً. أما هكذا جعلاه يترك شقته؟



١٥

كان العجوز يهيم من غرفة إلى أخرى، وحده، بعدما غادرته جيني مفيدة من الطقس الجميل لترافق والديها في نزهة. وهذا أمر طبيعي.

دخل المطبخ. كان فرنكي يحمل شطيرة كبيرة سخا عليها بالكثير من الزبدة. فبادر جده فيما يلحس أصابعه:

ـ أهلاً جدي. ما زلت تهمهم؟

فصعق العجوز: هويهمهم؟ وخرج من دون ان يجيب. محاولاً المشي بدون التوكؤ على الجدار. منذ الحريق، وكل فرد في الأسرة يذكره دائماً بنقاط وهنه ويضخها، حتى بات يحس بنفسه عالة حقيقية عليهم. هو الذي كان يحلم بولده يذهب مطمئنا الى أفراد عائلته أن يكونوا بحمايته هو. ما أتعس هذا التفكير. خنق شهقة كادت تتحول الى بكاء، التفتت ليستطلع اذا كان فرنكي رآه. في شقته، تحت، كان

مرتـاحـا أكثـر. فليس من يتعمد تذكيره بأنه عجوز يزعج الجميع. قال لنفسـه بصوت متوسط: «مزعج»، فتقدم فرنكي من الباب:

-جدي، هل ناديتني؟

-كلا.

وأكمل وحده: «أنا مزعج للجميع». قالها بمرارة كمن يشتم نفسه.

وأخذته نوبة سعال، فانحنى تحت وطأة أنفاسه المقطوعة، وارتمى على كرسي، متصنـع الاهتمـام بالبـرنـامـج الـذي يشـاهـده فرنكي. أغمض عينيـه، وخيـل اليه أنه وصل الى نهاية نفق طويل. ولمح خلفه في البعيد كارل بينوبير صغيراً في سروال قصير، جالساً الى جانب جده في عربة تفوح منها رائحة الزبل الطري.

فتـح البـاب، وسمعت أصـوات متفرقة: ها هم عادوا. زفر عميقاً، ونهض عن كرسيـه بامتعـاض، وتوجه ليتمدد، حتى اذا تفقدته حفيدته وجدته في قيلولة. هكذا جرى: وقفت جيني عند الباب وهمست:

ـ جدي. . . . هل تنام؟

فكـر في سكـوتـه: «لا تجب». حافـظ على كرامتك. جهد في أن يبقى بغير حراك. غابت جيني، ثم عادت بعد نحو ساعة لتقول:

ـ جدي. . . اتعشها معك الليلة.

-صحيح؟ ما هذه المفاجأة؟

وانهـا لكـذلـك، أن تنال الحفيدة الاذن بمشاركته العشاء. وضعت الصينية على المنضدة، وأخذا يأكلان.

كانت تتكلم بصوت منخفض. ظنها العجوز نادمة لأنها تركته طوال ما بعـد الظهـر وحيـداً، فقـرر أن يسـامحها. راحا يقتسمان المعكرونة بالـزبـدة، والاجـاص. أضـاف حضـور جيني معـه طعمـاً جديـداً للطعـام. أخـذ ينظـر اليهـا بحنـان. حتى اكتشف أن عينيها محمرتان ومنتفختان. أراد أن يأخذ بيدها فلم يجرؤ.

ـجيني، صغيرتي، ما بك؟

كان صوتـه متهـدجـاً منفعـلاً. منـذ طفـولتها الأولى وهي تهمس له أحزانها. رفعت رأسها قليلاً، فاذا عيناها مغروقتان بالدموع، فخرجت مســرعـة. وبقي هو جالسـاً تحت وطأة عجـزه. ما فائـدتـه اذا لم يكن يستطيع مؤاساتها؟ بعد لحظات، عادت، أقفلت وراءها الباب بهدوء، وانهارت على ركبتيه جاشية بصوت متقطع خفيض:

ـجـدي... جدي... جميعهم تآمـروا مع المـديرة ليرسلوك الى المأوى. سيـرافقـونـك بحجـة أن تلقي نظـرة، لكنني أعـرفهم: ما ان تمسي هناك حتى يتركوك فيه. لا تصدقهم يا جدي، لا تذهب معهم، أرجوك. لا أريد أن أخسرك.

وأخـذت جيني تبكي بشهقـات كبيرة. وكان لهذا النبأ وقع هائل في قلب العجوز، هدت منه مفاصله جميعها. فقال لها: «دعيني وحدي، وانهار في سريره».

بقي ثماني وأربعين ساعة من دون حراك، موسوساً من كلام جيني. وجميع أفراد العائلة يتعاقبون على الغرفة ويمطرونه بالأسئلة: «جدي، ما بك؟ هل أنت مريض؟ ألا تريد أن تنهض»؟

أمـا هو، فعلى صمت تام، حتى أحس كأنـه سيموت. هكذا إذن: قرروا أن يتخلصـوا منـه كمـا لو انـه حصان كسرت رجله. وفكر في يوم منعوه من اجتياز الشارع وحده. كان عليه ـ كما موسى شق عباب البحر الأحمر ـ أن يشق طريقه بين أرتال السيارات. لكنه لم يتذمر، وارتضى أن ينـام على الاريكـة في الصالون، ثم في غرفة حفيده في اثناء ترميم شقته، فيما هو مدرك أنه لن يعود اليها. قالوا له غير مرة: «جدي، لماذا لا تسكن معنـا، فوق، فتكـون مرتـاحـاً أكثـر»؟ لكنهم خبثـاء. ما زال يسمـع صوتهم وكلمـاتهم. تلك الليلة الأولى قضـاهـا خارج غرفتـه، جعلته هرماً عجوزاً. والآن: المأوى. الخونة... وهو الذي تمنى يوماً

أن يموت واقفاً.

نهض للذهاب الى الحمام. توكأ على الأثاث وأذناه تهدران. في الحمام. جمحت به رغبة كبرى للبكاء. حتى كادت قواه تخور. لشعوره بالوهن والشيخوخة واليأس والوحدة. تراكمت عليه هذه الأحاسيس فغاض في نوم ثقيل. وحين استيقظ صباح الأربعاء، كانت أشعة الشمس تدخل قوية من النافذة، وكان قد عاد إليه الهدوء. جلس على حافة السرير مدلياً رجليه، وقرر فجأة: «يجب أن أرحل. سأعود الى المزرعة».

وضع رجليه على الارض. متيحاً للحركة الدم تتغلغل في مفاصله المتعبة. وعاد الى التمتمة: «سأرحل». وقام الى النافذة يغلقها، ويفتح في قلبه أملاً.

تململ فرنكي من تحت أغطيته:

- أرجوك جدي بلا ضجة اريد ان انام دخل الحمام. غسل وجهه بالماء البارد، مطلقاً بعض همهمات الارتياح. فكر في أن يخرج فوراً من الباب ويذهب. فضل التريث حتى يوم السبت، مفيداً من ثلاثة أيام للتحضير والتهيؤ.





١٦

استيقظت جيني. كانت إيتيل تهز حافة السرير، وأبوها يصرخ باحثاً عن قميصه الأزرق. لاحظت جيني أنها تزرر قميصها بصعوبة. منذ تلك الحادثة مع جدها، لم تنفك ترتجف مضطربة من خوف ويأس. أنهت هندامها بسرعة. لم يلاحظ أحد ما تشعر به. كأنها تعيش في كوكب وأهلها في كوكب آخر. حاولت عشية أمس أن تقنع والدها:

-أبي، لا تفعل هذا. أرجوك. إنه لأمر مرعب.

-أحرمك من الكلام في هذا الموضوع، ولا تنظري إلي بهاتين العينين الجاحظتين. ما زلت صغيرة حتى تستطيعي استيعاب الحالة. ثم... من قال لك أنه لن يكون سعيداً هناك؟

-لا. لا أريد. أرفض.

رمت قفازها على منضدة الحمام، فيما غيل تضرب بقوة على

الباب. فتحت جيني لتدخل شقيقتها غضبى:

- عجلي. سأتأخر.

توجهت جيني الى شقيقتها إيتيل فحملتها من السرير، وقبلتها في شعرها. ثم دخلت الى المطبخ. كانت والدتها منهمكة أمام الفرن، لابسة مريولاً مخططاً فوق ثياب النوم. وكان جدها - اللابس كاملاً والحالق كيفما اتفق - يحتسي شايه واقفاً قرب مغسلة الصحون. صرخت له «جدي» بكل فرح، فلم ترفيه ذاك العجوز الشاحب المريض المكوم في سريره، فأجابها بهدوء: «صباح الخير جيني».

دخل السيد بينوبير حاملاً جريدته في يده. جلس فرنكي صامتاً وعلى وجهه بقايا آثار النوم. ثم أطلت غيل بمجعدات شعرها. لم تكن جيني تستطيع أن تطرح على جدها ما يجول في رأسها من أسئلة. كان قلبها يرقص ابتهاجا. ها هو العجوز، جدها «هي»، عاد من جديد.

لدى عودتها من المدينة، دخلت قافزة تبحث عنه، فلم تجده في أية غرفة. سألت أمها فأجابتها:

- خرج منذ ساعات، بدأ يقلقني غيابه. بم يفكر، ترى، حتى غاب كل هذا الوقت؟ جلت ثلاثاً في الحي فلم أعثر عليه. من يدري الى أين ذهب؟ اذا عاد ابوك مرهقاً ولم يجده، فستكون العاقبة وخيمة.

- سأخرج للبحث عنه.

وخرجت.. تؤرقها تهديدات أمها من «عاقبة وخيمة». ٥ يكون جدها عاد كما تعرفه، أم ان خيالها يصوره لها هكذا؟ مرت أمام منزل آل رمبو، فلم تتمالك من النظر في الأرض أمامها: هل من أثر، بعد، للبقعة حيث دهس نيكي؟ ارتعشت للفكرة. أين يمكن أن يكون جدها ذهب؟ حثت الخطى ثم راحت تركض قلقة مضطربة. فجأة، رأته: جاء صوبها، يداه غارقتان في جيب معطفه الأسود العتيق:

-جدي، أين كنت؟ فتشت عنك في كل مكان.

-ذهبت في جولة.
-أية جولة هذه منذ ثلاث ساعات؟ أمي قلقة جداً عليك.
-سأعتذر اليها.
والتمتع في عينيه بريق ما، بعدما عاد الى نظرته. أخذت جيني تدور حوله مزهوة:
-أراك استعدت نشاطك. هل ذهبت للتنزه عند شط القناة؟
-نعم. ذهبت أعيد الحركة الى رجلي.
لمحت جيني جزءاً من خارطة طرق، بارزة خارج جيبه، مدت اليها يدها وهي تسأل
-ما هذه الخارطة؟
فانتفض العجوز مبتعداً:
لا تلمسيها.
ثم ارتقى درج المدخل بخطى غير بطيئة، فتابعته جيني مدهوشة. عادت تجد فيه جدها الحيوي النشيط القوي كما كانت عرفته. وأحست بأنه سيقوم بعمل ما للأسرة.
استقبلته السيدة بينويير باستغراب ولهفة:
-أخيراً، ها أنت...
-أعذريني، أوريليا، أنا أسف. زلق الوقت مني.
-أقلقتني يا عمي. كدت أتصل بالبوليس للبحث عنك.
-لا ضرورة. لن يجدي، بعد، أي شيء..
-وأنت قلت..
قالتها السيدة بينويير بغضب، ونهرت ابنتها:
-جيني، تحركي، وحضري المائدة بسرعة
انصاعت جيني، مطأطأة الرأس، معصورة القلب: استعاد جدها نشاطه أم لا. فسوف يصار الى وضعه في المأوى. لن يتراجع والداها

عن تنفيذ قرارهما.



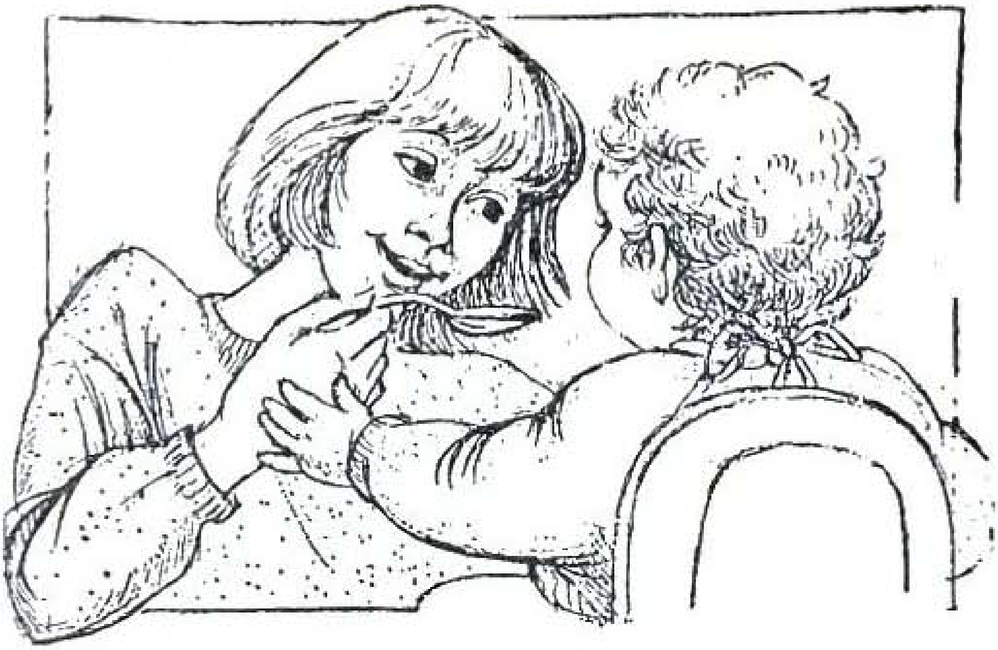
١٧

كان العجوز ينضح عرقاً حتى ء جبينه. دخل غرفته خلسة وتمدد في سريره. كان فمه ناشفاً ورجلاه رخوتين. من حسن حظه أن أوريليا لم تنتبه الى حالته. وفكر: حين يتحسن، سينهض ليشرب كوباً من الماء.

وأخـذ يخاطب نفسه: «أيها العجوز المتصابي، أسابيع كاملة تبقى مسجـونـاً. وفجأة، تخـرج فة ـشي كيلومتـرات طويلة في نهار واحد». لكنـه ـر بجسـده فتيـاً. ثمانية كيلومترات، مسافة غير عادية يقطعها عجوز مريض. من المريض؟ هو؟ خرافة. غداً سيعيد الكرة. وسيظل يمشي حتى آخـر نبضـة من قواه. كان عليـه التـوقف في محطـات استراحة، لكنه قطع المسافة دفعة واحدة. أحس بركبتيه تؤلمانه. لكن هذا لا يهم، ما دام قد شعر بأنه سيتمكن من الرحيل. لن يستمر محني

الظهر والارادة أمام قوم لا يحبونه.

بلى: سيذهب الى المزرعة. الى مزرعته القديمة التي هجرها من زمان وجاء الى هذا البيت. بيت ابنه. يكفي تفكيره بهذا الأمر حتى يستعيد قواه. سيعود الى عشبها الطري حيث كان يتنقل فتي القلب. كم كان شاباً، أيامها، ونشيطاً. كان يحس العالم كله ملكه. وكان يحس فيه قوة هائلة، راحت تخف مع الأيام. ولكنها لم تخر نهائياً كما يعامله أهل البيت، حتى كاد يصدقهم أنه هكذا منهار. أبداً. إن فيه، بعد، من الحيوية ما لم يكن عالماً به. ونزهة اليوم برهان أكيد على الحيوية في رجليه، هذه التي عاد فاكتشفها، ومعها اكتشف كل ثقته بنفسه.



١٨

م م م ما أطيبها . . .

قالتها جيني وهي تلقم شقيقتها الصغرى إيتيل ملعقة الطعام. فتحت الصغيرة فمها واسعاً، واندلق بعض الطعام على ذقنها. ثم غمست أصابعها العشرة في السائل السكري، وأخذت تلحسها تباعاً:

-تفضلين الأكل هكذا؟ إذن أكملي الأكل وحدك بدوني.

وركزت جيني شقيقتها في كرسيها الصغير، ودخلت غرفتها تقوم ببعض الترتيب، حتى اذا انتهت، توجهت الى غرفة جدها تطرق بابه:

-جدي . . . جدي . . .

لا من جواب. سألت أمها التي كانت في الغرفة حاملة مكنسة. فأجابتها:

-خرج منذ دقيقة. قال إنه سيقوم بجولة. بات فعلاً لا يطاق. الى

ماذا يرمي من هذه الجـولات اليـومية؟ وماذا لو حدث له مكروه؟ ماذا لو صدمته سيارة؟ ان هذه التصرفات تقلقني وتثير أعصابي.

لم تتأثـر جيني بكـلام امهـا. هي تعرف ما يدور في بال جدها، ولم يكن غيابه يشغلها، بل لماذا خرج ولم ينتظرها. كبر السؤال في رأسها فسألت أمها:

- هل لي بالخروج؟

- مهـلاً. لا تزلقي هكـذا متسللة. جيئيني بشـراشف نظيفـة ووجوه وسادات. وانتبهي: لا تلك الجديدة، بل التي على الرف الأيمن.

انصاعت جيني غضبى، لتأخرها عن فكرة تشغل بالها، لتصرف من جدها غريب: ما مغزى هذه الجولات وتلك البسمة ذات اللغز؟ وتلك الخارطة في جيبه؟ جاءت بالشراشف ووضعتها على المنضدة سائلة:

- والآن، هل يمكنني الخروج؟

ومـا أن اجـابتهـا أمهـا بالموافقة، حتى هرعت الى غرفتها وانتشلت قميصـاً من تعليقـة المـلابس بعنف يكـاد يوقـع أرضـاً. هذه ثلاثة أيام استعـاد في غضـونهـا جدهـا نزهاته السابقة، وكلما سألته يكتفي بتلك الابتسامة المحيرة.

فجأة، تجمدت في مكانها: بدالها ان أنها فهمت تلك الابتسامة. بلى، فهمت: انها فكرته بالتصميم على الرحيل والخلاص من سجنه في القفص.

- آه، جدي، ما هذه الفكرة الرائعة!

لكنها عادت فانتبهت الى أنه خرج وحده، من دونها، وحتى من غير أن يودعها. إذن، فلتلحق به وترافقه.

هنا نادتها أمها:

- جيني، أما زلت هنا؟

مدن جيني يدهـا تحت ثيـابهـا في الـدرج، ململمة منه النقود التي

اقتصدتها. نادتها أمها مجدداً بصوت أقوى، فتمالكت من أن تجيب، ودست النقود في جيبها، وانسلت خلسة خارج المنزل، قاصدة المكان الذي التقت فيه بجدها قبل أيام.

حثت خطاها، مخترقة المشاة على الرصيف. اجتاحتها لحظة رعب، فأخذت تركض. ولكن، ماذا لو لم يكن جدها ذهب إلا عند بائع التبغ؟ كلا. هذا لا يفسر تلك الابتسامة المحيرة. راحت تركض أسرع. دخلت حصاة صغيرة في حذائها، وتعالى الغبار أمامها، فأدمع عينيها.

فجأة... رأته.

كان يمشي بخطى متئدة، بلغته، قفزت الى رقبته:

-جدي... جدي مهلاً، سأرافقك.

لكنه نزع يديها عن رقبته بهدوء، وببعض انزعاج أجاب:

- عودي الى البيت يا صغيرتي.

-فهمت: اذن أنت راحل! ستنجو بنفسك.

-ما هذا؟ ماذا تقولين يا ابنتي؟

لا تأخذ هذا الطابع المستغرب. أنا أعرف أنك راحل.

-ما هذه الخرفة!...

واقترب باص من المكان، فأومأ له العجوز. توقف وانفتحت أبوابه فانسل العجوز داخله. لحقت به جيني، فدفعت ثمن بطاقتها وتسمرت قبالته، فنهرها بصوت خفيض:

- عودي الى البيت.

-لن أعود.

لم يعلق العجوز ولا بكلمة. عند وقفة الباص التالية. نهرها بحزم:

-انزلي هنا بسرعة.

-لا تصرخ هكذا. الجميع ينظرون الينا.

وعاد الباص فأقلع من جديد، بطيئاً، تنبعث من مقدمته رائحة الوقود. بعد ثلاثة شوارع، أفهمها جدها:

-لن يسمحوا لك بالذهاب هكذا.

اذن هو أقر بأنها فهمت تصميمه على الذهاب، وتبدو مصممة جدياً على الذهاب معه. أجابته:

-لا يهمني ماذا يقولون.

تطلعت اليها جارتها بعين مستغربة. فصمتت جيني، وألصقت أنفها بزجاج الباص، وأخذت تتابع المشهد. توقف الباص وأعلن السائق:

-نهاية الخط، فلينزل الجميع.

نزل العجوز فتبعته جيني. كانت الأرصفة مزدحمة بالمارة، ورائحة الفشار تمتزج برائحة الدخان من السيارات العابرة، قال لها جدها:

-الباص الذي يمر من أمام البيت، يتوقف في الجهة المقابلة للشارع، انتظريه.

- اذا أنا ذهبت فيه، هل تخبرني أنت الى أين ذاهب؟

-جيني، لا يمكنني أن أخبرك يا صغيرتي. لا أريد أن يتعقبني أحد.

-ألا تثق بي؟ ألا تؤمن بأنني أحفظ السر؟

نظر اليها عميقاً، وهز برأسه إيجاباً وقال لها:

-سأعود الى المزرعة.

-كنت واثقة من ذلك. جدي، سأجيء معك.

-أبداً. غير ممكن.

-وماذا ستفعل هناك؟

-سأعيش.

-وحدك؟؟؟



ـنعم، وحدي.

ـبل سأرافقك.

ـقلت لا. أنت، ماذا ستفعلين هناك؟

ـأهتم بك. أعتني بك. ولن نفترق قط بعد اليوم.

بقيت متمسكة به حتى بلغا المحطة، في بناء قديم ذي قرميد أحمر ورائحة عطنة. توجه الى شباك التذاكر، ونهرها بحزم حاسم:

ـنفترق هنا.

وقال للموظف:

ـتذكرة ذهاب فقط، الى نيوسير.

وأخرج من جيبه أوراقه النقدية، وعدها وأعطاها للموظف الذي عدها من جديد:

ـالمبلغ المطلوب. عربتك تنطلق بعد نصف ساعة.

تقدمت جيني من الموظف:

تذكرة ذهاب فقط الى نيوسير.

تطلع اليها العجوز باستغراب وذهول، وشفتاه ترتجفان:

ـولكن... ولكن... سيجنون قلقاً عليك.

ـ... وعليك أيضاً.

لا أظن. أستغرب أن يقلقوا علي اذا عرفوا بأنهم تخلصوا مني. اذهبي. أعيدي بطاقتك. قولي إنك أخطأت فيعيد إليك الموظف نقودك.

لكن جيني لم تتحرك. يريد الذهاب؟ هي أيضاً. وكيف يمكنها البقاء من غيره؟ فجأة زعق مكبر الصوت:

ـالركاب الى هاملتون، فريلاند، كامبريدج، نيوسير، فليتوجهوا الى العربة.

وعلقت جيني:

ـمن هنا جدي. من هنا.

وأخـذت العـربـة تبتلع الـركاب تباعاً. تعلقت جيني بذراع جدها. صرخت أم صافعة ابنها على يده: «إنزع اصبعك من أنفك». فالتفتت اليها، باستغراب، فتاة تحمل على ظهرها حقيبة. وظلت العربة تبتلع ركابها حتى كاد صف الركاب ينتهي، فجزم العجوز:

- هذه المرة، نهائية. عودي.

- لن ادعك تذهب وحدك

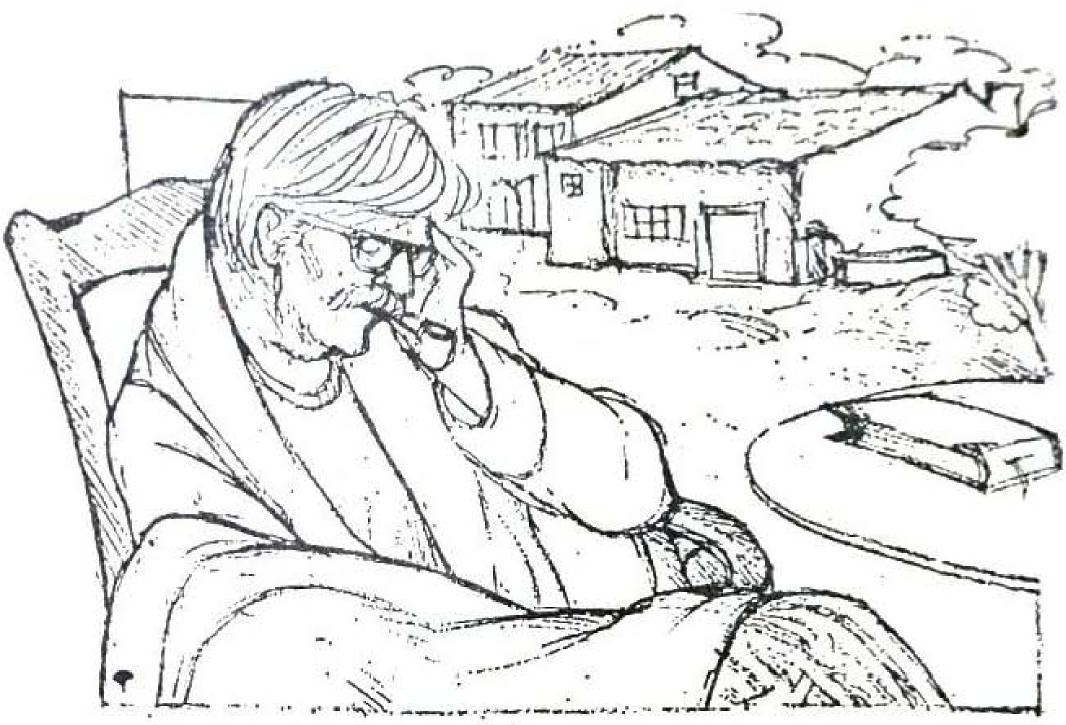
-اذن لا سلطة لي على أحد. حتى عليك.

-جدي.. جدي.. تصر فعلاً على أن أعود؟ ألم تفهم بعد يا جدي؟

وغرزت وجهها في معطفه العتيق، فعقبت منه رائحة النفتالين والتبغ.

جدي، لا يمكنني أن أتركك. ليس لي سواك في هذه الحياة.

وتدافع الركاب وراءها إذ كانت تسد الممر. صرخوا لها أن تتقدم. أن تتحرك. أن تصعد. ومعاً... صعدا الى الحافلة المكتظة.



١٩

غرق العجوز في مقعده، منهكاً جسدياً ونفسياً. وغلبه الارهاق فأغمض عينيه وأخذت المزرعة تتخايل له بيضاء بقرميدها الأحمر وسط حقول مبللة بالنور. إنها مزرعة طفولته. منذ غادرها مستأجروها وهي حتماً تحتاج الى ترميم. هناك، سيكون سيد المكان وسيد نفسه. سيقبض راتبه التقاعدي. وسيعتني بالخضر، ويتدفأ بالخشب والفحم، ويشتري بقرة ودجاجتين أو ثلاثاً ليغنم من بيضها.

وهز رأسه مستغرباً لماذا لم يرحل قبل اليوم. لكن زوجته كانت تكره الريف والسكون ورائحة الزبل والطرقات الرجاجة. كان يمكنه، بعد وفاتها، أن ينتقل الى هناك. انما كان المستأجرون لا يزالون فيها. وبعد ثلاث سنوات، عندما غادرها، لم يعد يستطيع مغادرة جيني التي باتت، في وحدته، كل حياته.

ارتجت الحافلة ففتح عينيه. كان قماش المقعد تحت خده خشناً. أخذ يتابع المشهد. وفكر: لم يكن في نيته انتشال جيني من أسرتها. بل هو قام بجميع المحاولات لاعادتها. لكنها بقيت على إصرارها في مرافقته. وهو نفسه فخوراً بصمت: «انها عنيدة مثلي».

وقـرر أن يعيـدها الى البيت بعد يومين أو ثلاثة. ولكن، ماذا لو وافق ابنـه فرنـك على السماح لها بالبقاء معه في المزرعة؟ سوى أنه استبعد سريعـاً هذه الفكـرة الشـاذة، تمـامـاً كما استبعد من مخيلته صورة ابنه الذي لم يحسن معاملته.

أخرج غليونه، وأخذ يتحسس بشفتيه: لماذا كل هذا التفكير ما دام أفلت من الـذهـاب الى مأوى العجـزة. كان كابـوسـاً وانتهى. وها هو سيعود مطمئناً الى المزرعة، الى بيته القديم الحاني.



٢٠

ـ ما هذا؟ ما هذا التصرف؟ هل جننتما لتفعلا هذا؟

وارتعشت جيني مذعورة. خيل اليها أنها سمعت صوت والدها غاضباً، وعادت فألصقت أنفها على الزجاج، وراحت تراقب المشهد من نافذة الحافلة التي تهدر في سيرها البطيء.

كانت تسمع حولها مقتطفات من أحاديث سخيفة. أمامها كان يجلس ولد نائماً بهناءة على كتف أمه. هل نامت هي مرة هكذا؟ لا تتذكر. ولا تظن أن أمها كانت ستسمح لها بذلك. دنت على جدها والتصقت به. وبقيت تتسلى بمتابعة أرقام السيارات التي تتجاوز الحافلة.

تنهد جدها وعلق:

ـ على أيامي، كانت هذه الطرقات خالية. وذات مرة، وكنت صبياً،

اجتـزت كل هذه المسـافة ماشياً، وكان يمكنني السير في وسط الطريق بلا خطـر. لم تكن الطـرقـات معبـدة بعـد للسيـارات. أحياناً كان يمر مزارع فيقلني معه في عربته، ونتسلى باجتياز المسافة معاً.

ولم تكن جيني تضجر من الاصغاء اليه يروي لها تفاصيل من أيامه المـاضيـة. وفكـرت: ما ستكـون ردة فعـل والديها حين سيشعران بأن غيـابهـا طال عن العـادة. سيهـاتفـان رودا. ثم سائـر رفيقـاتهـا. طبعاً ستتصـل هي بهمـا، إنمـا ليس قبل أن يصل يصل جدها الى المزرعة ويستقـر وتطمئن عليـه. والا فهمـا قادران على المجيء الى المـزرعـة واصطحابه معهما الى المأوى.

تجاوزت الحافلة سيارة شرطة. اضطربت جيني وطرق قلبها عنيفاً: هل هي الشـرطـة تتعقبهـا؟ اضطـرت، قلقة، الى النظر خارجاً. رأت مقبـرة سيـارات مكـومـة، وحفنة بيوت متلاصقة، وموقف سيارات مليئاً ومكتظـاً، وقـرى لم تكن تتمكن من أن تقـرأ أسماءها، ومصانع و.... زاغت عيناها من كثرة التحديق، فثقلت أجفانها ونامت.

٢١

توقفت الحافلة في فريلند، فترجلا يحركان مفاصلهما. كانت الشوارع متسخة والأرصفة مكتظة. شرب العجوز ماء واشترت جيني كيساً من الملبس، ثم ذهبا الى الحمام وعادا الى مكانهما.

جلست جيني وسرحت شعرها قليلاً، فيما السائق يدقق في البطاقات. وما هي الا برهة حتى انطلقت الحافلة من جديد. تجتاز القرى الصغيرة وتعبر الضواحي الشاسعة والمدن الملوثة بالدخان الأسود. وباتت الرحلة رتيبة، متقطعة بتوقفات قصيرة.

وكان العجوز، بين كل غفوتين، يروي للصغيرة مغامراته المتعددة في ما مر من حياته الطويلة. مع انسدال الليل، كانت مصابيح السيارات الآتية من الجهة المقابلة تخترق العتمة الكثيفة، فيما الركاب نائمون في نور الحافلة الخافت. واستسلمت جيني، هي أيضاً، الى غفوتها.

وحين استيقظت، كان على شفتيها طعم الرماد، وعيناها تؤلمانها. استقامت في جلستها على المقعد، مرفرفة بجفونها. كاد الصبح يطل من خلف التلال. ودخلت الحافلة في الشارع الوحيد لقرية صغيرة، ثم تباطأت حتى توقفت امام محل مقفل بستار حديدي.

بعد ذلك صاح السائق المنهك وكان ذا وجه شاحب من التعب:

-نيوسير. الركاب فليغادروا.

لكزت جيني جدها:

-جدي... جدي... استيقظ وانهض. وصلنا. هذه نيوسير.



٢٢

الخامسة صباحاً. القرية تعبق برائحة الزبل. بعدما ملأت الحافلة الجو بضجيج محركها وهي تغادر، عاد الى القرية هدوؤها الثقيل. فقال العجوز:

-مسافة قصيرة نقطعها مشياً، ونصل الى المزرعة.

-كم هذه المسافة؟

-ثلاثة عشر كيلو متراً.

غضنت جيني عينيها. وألقت حولها نظرة فضولية. رأت كنيسة ذات قرميد أحمر. والى جانب المحل ذي الستار الحديدي المقفل، كان دكان خردوات، في واجهته بضاعة عتيقة من مختلف الأنواع. أبعد قليلاً، محل للجبنة يدعي أنه يصدر أفضل بضاعة في البلاد.



أخـذا يسيـران . كان عليهما ـ لبلغا طريق الدجاج الرومي ـ أن يمرا بالكنيسـة الانجيليـة ويحـاذيا المدافن العامة . كانت الشمس ارتفعت في سماء ذات زرقة نقية . فيما تسمرت على مستوى الارض في بعض البقـع شراشف من الضبـاب الأبيض . أبعد قليلاً، كانت بقرات تطلق خواراً متثائباً، فيما راعٍ ينادي على كلبه .

مرا بمنـازل غافيـة، وبسيـارات تقـزز الندى على زجاجها . لم تكن جيني تجـرؤ على كسـر هذا الصمت السحري . كانت تقفز الى جانب جدهـا متطلعـة حولهـا بلهفـة، تغمرها أحاسيس فرح . ها الأسرة الآن بعيـدة : والـداها، وفاليري، والباقون، وشعرت كأنها تطأ أرض كوكب لم يكتشف بعد .

أمامها، في مستودع مطلي بالأخضر، أضيء مصباح، فعلق العجوز:

ـانه المزارع جاء يحلب بقراته .

ثم اختـرقت الصمت زغـردة بلحنين، أجـابتهـا زغـردة أخـرى . استفهمت جيني :

أسمعت؟ ما هذا؟

ـأنه طائر الدخلة، من فصيلة الجواثم .

مرا بمنـزل آخـر، تختـرق ستـائـره خيـوط ضوء، وعلى حافة نافذته نبتات في آنية . قال العجوز:

ـ ها منبه الصباح يرن . انه النهار يبدأ .

هجم كلب باتجـاهمـا كأنه سيعضهما للتو. خافت جيني وتراجعت خطوتين . فهدأها جدها :

ـلا تخافي . يحاول أن يفهمنا أنه حامي القانون هنا .

عنـد المنعطف ، كانت امـرأة تبيع الفواكه والخضر. اشتريا بندورة

وذرة. أحست جيني بمعدتها تزقزق لشدة ما كانت جائعة. فغرزت أسنانها في سنبلة ذرة، فيما العجوز راح يتلذذ برأس بندورة.

مضى عليهما ساعة، حين توقفت عندهما شاحنة صغيرة مد سائقها رأسه من نافذتها:

-هلا صعدتما؟ لا أذهب بعيدا، ولكنّ مهما يكن، أفضل من المشي.

صعد العجوز في المقعد الأمامي، فيما تكومت جيني على المقعد الخلفي الى جانب ولد أشعث الشعر أسوده. وعطست الشاحنة وأقلعت. التفت اليها الولد وراح يمطرها بأسئلة لم ينتظر جواباً عنها:

-مرحبا. . . ما عمرك؟ أنا في الثانية عشرة. . . . أبدو أكبر. . . . أعرف أن أقوم بأي عمل. . . أقود جرار والدي. . . وأشرب الجعة

ثم تناول سيجارة من جيب قميصه المخطط، وضعها في طرف فمه، وأكمل:

-تريدين سيجارة؟

فهزت جيني رأسها الى فوق وقالت بقرف منه:

-أبداً.

-تشربين الجعة؟

-كلا.

-اذن لا تعرفين أن تقومي بأي عمل.

واستلقى الولد في ضحكة ساخرة، انعطفت الشاحنة في طريق ترابي، وتوقفت عند بوابة مزرعة يسدها جرار كبير. فترجلت جيني وجدها الذي قال وهو ينزل:

-شكراً يا سيد.

-قلت لي إنكما تذهبان من طريق الدجاج الرومي.

-نعم. نقصد مزرعة آل بينويير.

فرفرف المزارع عينيه، وقال باستغراب متصاعد:

-تقصد تلك المزرعة المهجورة؟

- هذه هي. انها مزرعتي. وأعود لأسكن فيها.

-أنت، وهذه الصغيرة؟

قال هذا، وابنه نظرة غامزة، ثم عاد الى السؤال مستغرباً:

-تسكنان وحدكما؟

وعض شفته ليمنع نفسه من الانفجار في ضحكة عالية، وتطلع مجدداً الى ابنه:

-ألا ترى أن هذه اطراف حادثة تحصل هذا العام؟؟؟



٢٣

عبثاً كانت جيني تبحث عن لافتة تشير الى الطريق. لم يكن أمامها سوى حقل مليء بثقوب متفاوتة، فنبهها العجوز:

-استديري من هنا.

-وصلنا؟

-كلا. أربعة كيلومترات بعد.

كانت الطريق صعوداً، وهما يرتقيانه ببطء. حولهما، حقول شاسعة، وفوقهما سماء صافية كما لم ترجيني مثلها من قبل. وكلما تقدما، كانت الطريق تسوء أكثر. خلف للتلة الأولى، كانت تلة أخرى. أحس العجوز أن أنفاسه تكاد تنقطع من التعب. جلس على حافة الطريق منهكاً حتى الاعياء. وبيد مرتجفة، فك زر معطفه فيما وجهه ينضح عرقاً.

الجدران المورقة والأثاث الضخم والستائر المدلاة والواجهة التي كانت فيهـا جدة كارل الصغيـر تخبىء أشيـاءه الصغيـرة : أصـدافـه ، صحناً مرسوماً عليه باليد ، وإناء من البلور .

أخذت جيني تنظر حولها منذهلة . الأرض مغطاة بتلال من القمامة والورق الأصفر العفن والقناني المكسرة وأشياء لا اسماء لها ، وأكداس ورق الجـدران تتـدلى مزقـاً على الأرض وبقاياها على الجدران ، فيما على الجص مرت أياد حفرت كتابات أو نقوشاً زرية .

لم تشعر جيني بهذا من قبل . قالت وهي تحاول إخراج جدها :

ـ هلم نخرج من هنا .

لكنه لم يتحرك . تمتم :

ـ كـانت هذه أجمـل غرفـة في البيت . هنـا كان أجمـل أثاث . بقي موجوداً حتى قبل عشر سنوات حتى أجرنا البيت .

ـ جدي ، هلم ننظر في النواحي .

ودفعت بابـاً انفتـح بصـريـر مزعـج . وشقت طريقـاً وسط القمامة . المشهد الحزين نفسه . انما هنا : موقد خشب متآكل . الباب لا ينغلق وأحجار النوافذ مأخوذة .

ـ جدي . . . تعال الى هنا . أفضل . سننظف هذا المكان . سيأخذ فوراً طابعاً آخر . ثم ، الموقد هنا يفيدنا .

اكتشفت جيني بقيـة مكنسـة في زاويـة ، وبـدأت تعمـل : تجمـع القذارات كوماً كوماً ترميها بجمعة يديها من النافذة . وسرعان ما فرغت أرض الغرفة من ركامها .

في عمق خزانـة هرمـة ، اكتشفت درجـاً صغيـراً يوصـل الى الطابق الأعلى . على مقـدمتـه خفاش طار . بحثت بيديها كلتيهما ، فاكتشفت مقعـداً مكسـوراً وصناديق فارغة وعارضة حديدية . راحت تنزلها واحدة

بدأ يسعل، فتناول ثلاث حبات أسبرين راح يمصها. استراحا قليلاً، ثم واصلا سيرهما الى التلة التالية. كانت بقرات متراصة حول عربة مليئة علفاً، فيما رف من الشحارير يغطي الحقل. قال العجوز:

ـ هنا.. هنا يبدأ العقار.

وأشار الى شجرة تفاح هرمة، وعمد سياج في وضع زري. وأكمل:

ـ هذا الحقل وهذه التلة وذاك الحقل خلفهما، ملك آل بينويير.

شدهت جيني:

ـ كل هذا؟

كانا بلغا منبسطاً. أرادت جيني أن تهرول لكنها فضلت أن تنتظر جدها. كان صدر العجوز يصفر عند التنفس، كان مستودع خرب مهدم هابط السقف. فصرخ العجوز:

ـ مستودعي... هذه المرة وصلنا.

كان الباب مخلوعاً من غير مصراعين. تقدمت جيني. في الداخل عتم شديد كما في فرن. خيل اليها أن على الارض قشاً. من دعامة السقف يتدلى خيط، وفي كل مكان أسلاك حديدية مسننة. وتنبعث رائحة حيوانية عفنة، وعلى الحائط سلم خشبي عتيق. هرعت جيني صوب السلم وأخذت تتسلقه حتى القضبان. نهرها جدها:

ـ لا. لا. القضبان مهترئة. ستقعين وتتحطم عظامك.

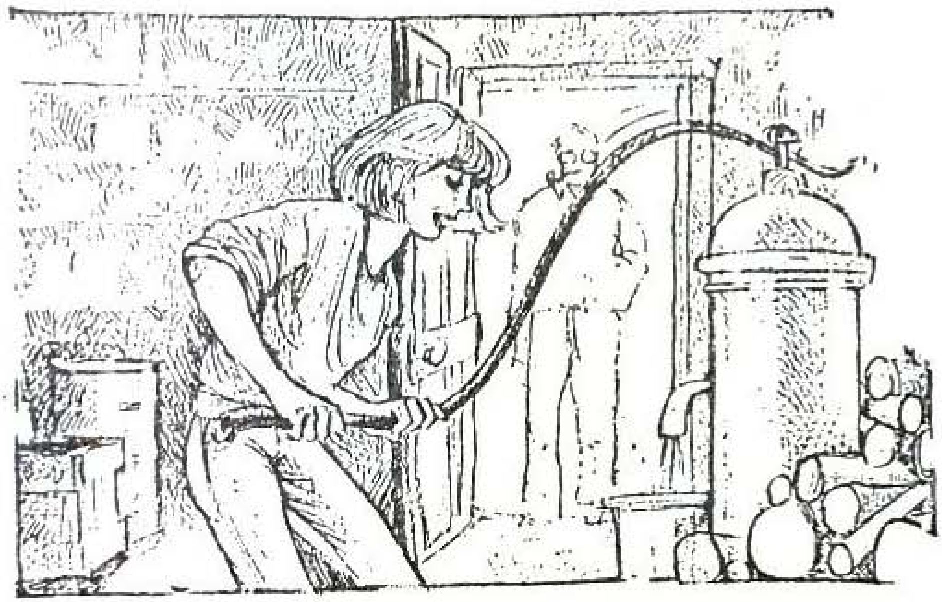
اندفعت صوب جدها بكل فرح. ها هما بلغا هدفهما من دون عوائق. سلكا طريق المزرعة. وما أن بلغاها حتى صرخت جيني مستغربة: كان الزجاج كله مكسراً، السقيفة منهارة، من غير دعامات، وباب المدخل معلقاً على مفصلات صدئة، وضواحي البيت كأنها مزبلة عمومية.

وضع العجوز يده فوق حاجبيه، وقال بصوت أجش: «فلندخل». وبدا قلبه معصوراً. لم يعد باقياً أثر من تلك الغرفة الكبيرة ذات

تلو الأخرى. وضعت السرير قرب النافذة وأجلست جدها على المقعد العتيق، وجهدت قائلة:

-مع نار مشتعلة، سيكون الأمر أفضل.

لكن العجوز، الشديد التأثر، ظل جامداً في مكانه، عاجزاً عن أي كلام.



٢٤

-جدي . . . من أين آتي بالماء؟

كانت جيني مسودة كالفحامين، وحلقها ناشفاً. فدلها العجوز باصبعه الى غرفة. تمتمت:

-لكنها مظلمة، والدخول اليها صعب.

كان فيها رفوف بعلو الجدار، وفي الزاوية مضخة ماء. وافاها جدها شارحاً:

الخزان في القبو. هكذا يمكننا الحصول على مياه للشرب طوال السنة.

أخذت جيني تحرك بقوة ذراع تلك المضخة، فلم تحصل على ماء بل على صرير مزعج. غمغم العجوز:

-قد يكون الخزان فارغاً.

وتقدم يفتح باب القبو، فصرخت جيني مذعورة:

-جدي، انتبه.

لم يكن باقياً من السلم الا حفرة كبيرة، تنبعث منها رائحة العفن. لو تقدم خطوة واحدة بعد، لكان تدحرج، رأسه بين قدميه.

-غريب فقدان السلم من هنا. أين تراه يكون؟

-عليك أن تسأل المخربين الذين كسروا البلاط. طبعاً لاقى السلم المصير إياه. غريب أمر الذين يتلذذون بتخريب كل ما يجدون أمامهم.

تراجع العجوز الى الوراء. وأقفل وراءه الباب، منبهاً:

-فلنجد حجراً ثقيلاً نسد به هذا الباب، لأن في تجاوزه خطرا أكيداً.

فأخذت تلم قطع قرميد تراكمت على المدخنة، وتكدسها أمام الباب، وهي لا تجرؤ على تخيل ما كان حصل لولم تنبه جدها الى الهوة. وحده هذا التخيل يرجفها.

-جدي، هذا لن يحل مشكلتنا. لوكان المخربون نووا البقاء في المزرعة، لكانوا سيحتاجون الى مياه للشرب.

-خلف البيت بئر.

وخرج ليدلها عليها، فانبسطت أمامه غابة أعشاب برية وأجمات وأشواك، فصرخت:

-آي... إنها تشوك.

ومع هذا تمكنا من شق طريق لهما صوب البئر. فأزاحت الأعشاب البرية عن المثابة، ورفعت الغطاء الخشبي عن الفتحة، فهبت على وجهها نسمة طرية. انحنت فوق الفتحة، فلمحت وجهها في الماء ووراءه السماء. تناول العجور دلواً حديديةً علق فيه سير جلدي. وقرفص ببعض عناء لتزل الدلو في الماء. وفيما هو يصعده، زفر:

ـكم هو ثقيل .

فغمست جيني كفيهـا في الـدلـو وشـربت منهمـا بنهم . وعب منـه العجـوز جرعـة طويلـة . فيمـا جوزة عنقـه تعلو وتهبط مع كل ابتلاع . وبانتهائه تنهد :

ـ وهذا في الأقل . ماء صاف لا أثر فيه للمواد الكيمياوية .

مع انتصاف النهار، جلسا تحت شجرة تفاح هرمة مكسرة الأغصان تنوء تحت تفاحاتها المنتشرة بعضها على الأرض . منها ما أتلفت وهي تقع أرضـاً، لكن منها ما بقيت سليمة، راحت جيني تغرز أسنانها فيها وتتذوق عصارتها بشهية . قال العجوز :

ـ غداً، مع مجيء الـربيـع، سأهتم ببستـان الفـاكهـة . لن يكـون وسيعاً، وسأسيجه لأحميه من الأرانب . سأزرع فيه جزراً وملفوفاً وبطاطا .

وكانت يداه، وهو يتكلم، ترسمان في الهواء أثلام الخضر المنتظمة المتوازية . ثم تنهد :

آه . ما أجمل هذه الهناءة . هنا يطيب العيش بسلام وأمان .

وهز رأسه مكملاً :

ـ هنـا مجـال واسـع للشغل . وتنتظرني أمور كثيرة لأصلحها . سأقوم بذلـك تدريجيـاً وفق ايقـاعي وقـدرتي . وكلمـا أتعب، أجيء أستريح تحت هذه التفاحة أتأمل الوادي المهيب أمامي .

وفكرت جيني : ما هذه السعادة! جدها استعاد معنوياتاه . ولم تكن لهـا رغبـة في القيـام بأيـة مشاريع . جمعت أفكارها وغاصت في حلم مليء بحيوانات حريرية ناعمة تنتقل في أشعة الشمس وسع الحقول .

حين كانت تنقب من جهـة المستـودع، وجدت عدة صفائح فولاذية مرميـة انتـزعهـا الهـواء من السقف . فحملت منهـا واحـدة هي الأقـل تضرراً . انتبه لها جدها :

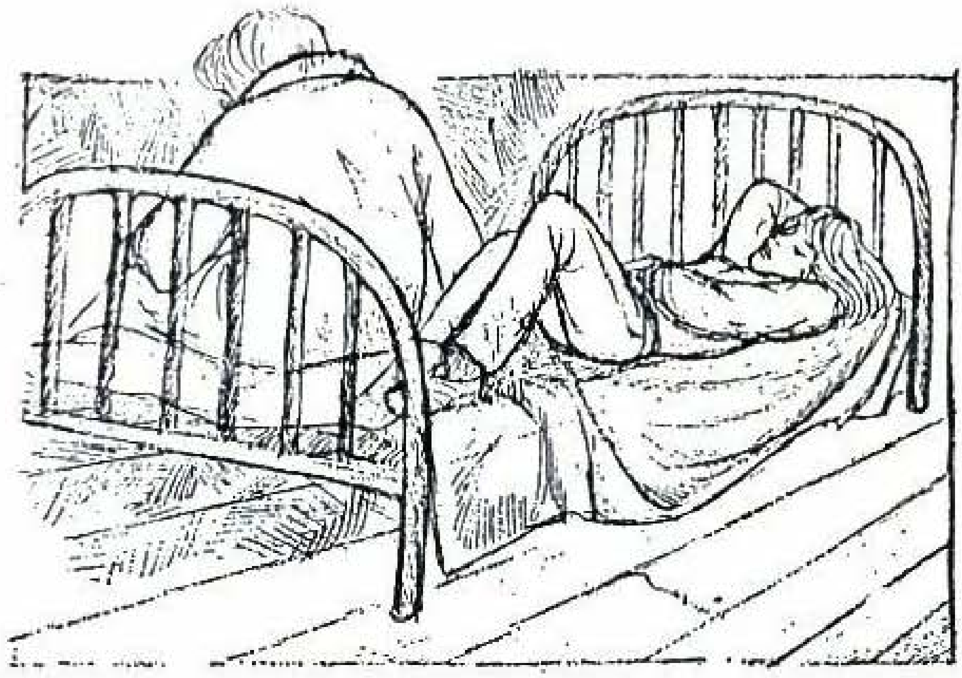
-فكرة جيدة، لنسد بها النافذة.
وفي المستودع، وجدت أيضا علبة مسامير لكنها لم تجد مطرقة. فاستدرك:
-ما هم، سأريك كيف نغرز مسمارا في الفولاذ بوساطة حجر كبير.
وسد النافذة بالصفيحة، وأخذ بعدئذ يلملم كسر الزجاج وأعناق القناني المتناثرة في كل المكان، من أن تجرح الأقدام. واستغرق طويلاً هذا العمل.
هبط الليل، ومعه ازداد الصقيع. فأشعل العجوز نادراً بجرائد قديمة ودقاق حطب، أضافت اليها جيني قطعاً من الخشب لملمتها من الزوايا. فتنهد العجوز:
-من حسن حظنا أن المدخنة ما زالت تعمل. اذهبي فتأكدي إن كانت تسحب جيداً.
واستلم الى مقعده منهكاً حتى الاعياء، فيما تقفزت هي، مأخوذة بموجة الدفء التي أضفت جواً جديداً على البيت العتيق بعدما كانت العتمة تغلف جراحه. وكان الدخان يعود الى الأرض نفثات حلزونية ملتفة. رأت في الأفق غيمات تنذر بطقس مقلق. بدأ المطر ينهمر. فأحست جيني كأنها في طرف الدنيا، بعيدة عن كل أحد وعن كل شيء.
عادت الى جدها ووضعت طعام العشاء على صندوق، وكان العشاء عدة تفاحات. أحست بعينيها تغمضان رغماً عنها. كان نهارها مرهقاً، ويداها وسختين وممتلئتين خدوشاً. انحنت فوق الموقد حيث ألسنة اللهب تنتفض بهدوء. وبدت الغرفة هكذا ملائمة للسكن.
حاولت مقاومة النعاس، لكن جدها انتهرها:
-جيني، الى النوم.
تمددا على المفروش العتيق من دون شراشف تحتهما، فيما الموقد

يزفر دخـانـه . أحست جبيني بصمت تام ثقيل ، راحت تخترقه تدريجياً أصوات غريبـة ، منهـا تسلل حيوانات وراء السياج ، وخفيف أوراق . فجأة ، هب الهـواء ، فأحست جبيني ببـرد قارس يختـرقهـا ، فالتصقت بجدهـا أكثر . وكم تمنت غطـاء في هذه اللحظـات . كانت نتوءات المفروش تحتها تلكز جسمها ، لكن إعياءها الشديد حملها الى نوم عميق .

في زهـاء منتصف الليـل ، استفـاقت جالسـة بقفزة واحدة . كان نور راجف يعكس ظلالـه على الجـدار . وجدها واقفاً عند السرير . نادته : «جـدي» . وتلمست خيـاله على ضوء ما تبقى من النار التي تخبو . كان ذاهلاً ، فنادته من جديد : «جدي» ، ومدت يدها تربت على يده .

ـ أنا هنا ، يا صغيرتي ، أنا هنا .

وعـاد الى الاستلقـاء في تنهد عميق ، ثم عادا الى الغفو من جديد ، ويدها في يده .



٢٥

استيقظت جيني مع الفجر، على زقزقة العصافير وخوار البقر. الى جانبها، كان مكان جدها خالياً.

دفعت بالمعطف القديم وألقت نظرة سريعة حولها. كان ضوء النهار يفضح أكثر فأكثر جو الغرفة القذر. نادت جدها وبقفزة واحدة بلغت الباب مذهولة، على الارض الرطبة. وجدت آثار قدميه. كان يجمع الحطب وهي ترتجف برداً. فصرخت:

ـ جدي، اليك بمعطفك. البسه بسرعة. سيلفحك البرد.

وحملته اليه طابعة على خده قبلة. غسلت وجههـا ببعض الماء، وقضمـا معـاً بضـع تفاحات على أنها الفطور. كانت التفاحات سكرية وجيني جائعـة فأكلت ستـاً. وعنـد التفـاحـة السادسة، فكرت أن ربما التفاحات مدودة. وبحذر تفحصت التي في يدها، ثم صرخت ملتفتة

الى جدها:
ـأف، جدي، هذه التفاحة مدودة.
فأجابها من غير انفعال:
ـما هم... تجنبي أماكن الدود. لا تقلقي.
وهكذا، تغذيا بالتفاح والماء طوال النهار. واعتادت جيني على قضم التفاحات في الأماكن السليمة من الدود. لم يكن لديهما سواها يأكلانه.
كان عليهما أن يذهبا الى نيوسير للتبضع. لكنها فكرت بقلق: هناك هواتف وحافلات. ماذا لو أصر جدها على أن تعود الى المنزل؟ فاستدركت:
ـجدي، هل ترضى أن أبقى معك اذا وافق والدي؟
ـوكيف سيوافقان؟ أنظري حولك يا صغيرتي: هل تظنين أنهما سيوافقان على أن تعيشي في هذه الخرائب؟
ـبمكننا أن نقوم بأشغال كثيرة، فنرمم البيت ونطليه.
وبنصف اغماءة، راحت تجول بفكرها في الصالة الكبرى. يجب إعادة تبليطها، ووضع ستائر، وجلب سريرين ميدانيين، ويركز جدها رفوفاً لوضع المعلبات، ويؤتى بالطحين والأرز والسكر والشاي في أوعية زجاجية. الأثاث، قليلة يكفي: طاولة وكرسيان وتعليقات ثياب وحوض صغير للغسيل.
خلال تفتيشه في المستودع، وجد العجوز كيسين قنبين كان فيها بذار، اقترح أن يستعملانهما غطاء. أخذت جيني تنفضهما بقوة، وعيارهما يتغلغل في أنفها وعينيها.
ـ اذا وجدنا، بعد، نحشوها قشاً فنستعملها مخدة.
وهرعت جيني الى المستودع، يتبعها جدها بخطى وئيدة، فالرؤية كانت ضبابية. أخذ العجوز يرفع من طريقه قرب الحليب الصدئة

ولفائف الأسلاك الحديدية وبقايا عدة قديمة، الى أن وجد أربعة أكياس راحا يملآنها قشاً.

وضعت جيني الأكياس المحشوة على السرير وارتمت فوقها لتجس رخاوتها. وصرخت «آي». كان القش واخزاً لكنه أفضل من النوم بلا مخدة.

عند تناول تفاحات العشاء، قرب النار، أخذت جيني تفكر بلائحة ما يجب أن يأتيا به سريعاً. تثاءبت من النعاس، وكانت ترغب في تأمل النجوم ليلاً. لكن النوم غلبها فأجلت ذلك الى ليلة تالية. وبما تبقى لها من القوة، انتقلت الى السرير وارتمت عليه مرهقة، وعلى الرغم من وخزات القش، غرقت في نوم عميق.

ظهر اليوم التالي، تمدد العجوز تحت شجرة التفاح ليرتاح. لاحظت أنه بدأ يتنقل بصعوبة، ويغرق في صمته أكثر.

ذهبت تحمل الماء فتلطخت وهي تصدع الدلو. هبت لفحة قارسة فاقشعرت لها. وفكرت: اذا الأمر اليوم كذلك، فكيف في الشتاء هل عليها أن تأتي كذلك الى البئر لتحصل على الماء؟

حملت الدلو الى الغرفة، وألقت من حولها نظرة يائسة من كونها أمضت ساعات طويلة في تنظيف المكان. أحست بأنها جائعة ومتسخة. وعلى حدود الدمع، ارتمت على السرير تفكر: ماذا سيكون مصيرهما؟ لا يمكن أن يعيشا طويلاً في هذا الحجر.

بقيت دقائق طويلة مرتمية على السرير. أحست بالاهانة فانتفضت بسرعة: لم تستغرب أن يكون جدها تردد كثيراً ليصطحبها معه. ولكن، صار الذي صار. ولا بد من التحرك الآن. وأخذت تكنس الغرفة وهي تغني. كان الغناء يرفع من معنوياتها. وقفت على عتبة الباب. كانت الظهيرة دافئة وهادئة. والعجوز ما زال نائماً تحت شجرة التفاح من دون حراك. نادته، وهرعت اليه مذعورة.

كانت شفتاه تتحركان وهو نائم. نادته من جديد، فحرك شفتيه وفتح عينيه بصعوبة، ونظر إليها بالتفاتة باهتة. سألته ملهوفة:

-أتريد ماء؟

-أجابها أن نعم وتحرك قليلاً.

بعد الظهر، تراكمت الغيوم الكثيفة فجعلت الطقس قارس البرد في موجة تغلغلت داخل مفاصل البيت وغرفه التي من غير نوافذ. أمضى العجوز ما بعد الظهر مكوماً قرب النار، كثير السعال قليل الكلام.

كان البرد قارساً جداً وكثير الرطوبة ومتغلغلاً في كل الغرفة. التصقت جيني بجدها. كان يسعل كثيراً حتى يكاد نفسه يتوقف. وفكرت قد يلزمه حساء ساخن، وأنها ستتدبر أمرها في اليوم التالي لتذهب الى نيوسير تحمل له أدوية وغذاءه. ستأتي بالحساء في أكياس صغيرة وأسهل حملاً، وبالسكر والحليب. كانت عيناها تغمضان رغماً عنها. وجهدت في إكمال وضع اللائحة في فكرها، لكن أفكارها تشوشت، وسمعت جدها تنتابه نوبة سعال طويلة، ثم انهارت في نوم عميق.

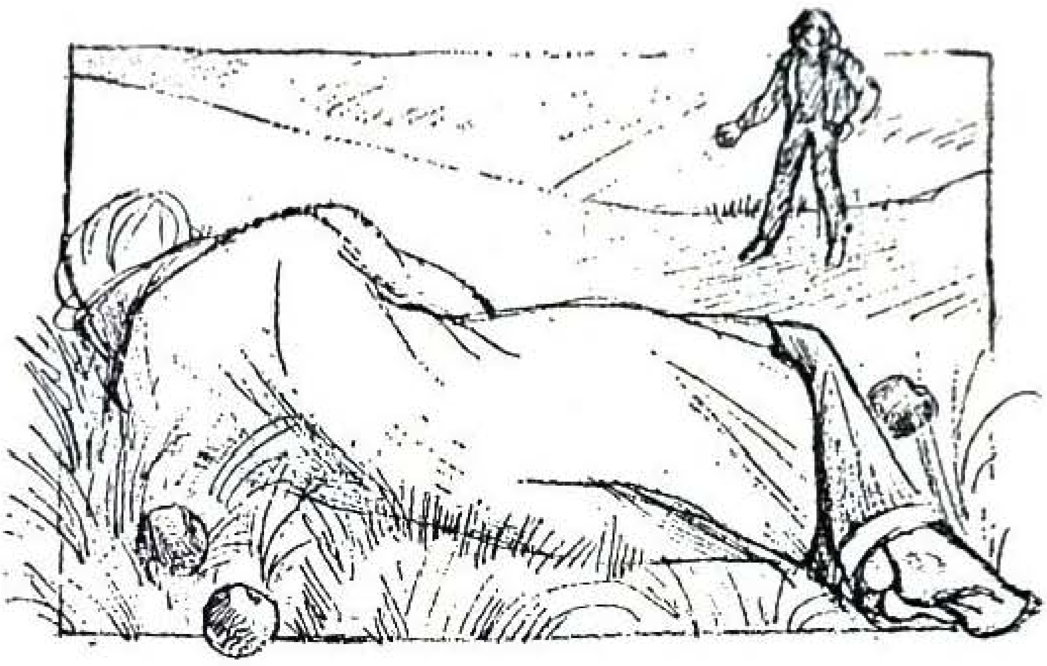
استيقظت على عاصفة قوية. كان البرق يمزق عتم السماء، والرعد يهدر في جنون غاضب، مرجرجاً أرجاء البيت، حتى تكاد تتفكك، والأشجار تنحني تحت وطأة الريح. تسللت مياه المطر تحت الصفيحة الفولاذية ورشتهما، فوضعت جيني رأسها تحت كيس لتحميه، لإن رجليها كانتا مبللتين. قلقت على العجوز:

-جدي، هل أنت مبلل؟

ونهضا ليبعدا السرير عن النافذة، فأخذت العجوز نوبة سعال حادة. وارتمت جيني على السرير ملتفة بكيس وغارقة في النوم، فلم تشهد نهاية العاصفة، وحين فتحت عينيها بعد حين، كان الجو هادئاً وصامتاً. انتبهت الى أنها رأت في الحلم جدها يقبلها ويغمغم بما

معناه: «لم يعد شيء يجدي يا جيني»، أو «لا فائدة، جيني، لا فائدة، انتهى كل شيء». . .

أحست جيني بحاجة الى التغلغل في جدها أكثر. لكنها فوجئت بمكانه خالياً. . . نادته بهمس، لكن البرد أرعدها فاصطكت أسنانها وعادت الى التكوم تحت الأكياس، وأخذها النوم وهي تعد نفسها أن تكتنز بعض لحظات الدفء، كي تنهض وتتأكد من أن جدها يغفو.



٦

صباح اليوم التالي، استيقظت جيني مرتعدة: في الغرفة رطوبة ثلجية، النار انطفأت، وتحت النافذة بقعة ماء. لم يكن جدها بعد في سريره. لبست بسرعة. حذاءها وسترتها، وهرعت الى الخارج.

كانت الأرض مغطاة بقشرة من الجليد. تنبت منها، كالابر، رؤوس العشب اليابس، وأخذت تنادي وأسنانها تصطك:

جدي.... جدي.... أين أنت؟

نادت مرتين.. ثلاثاً... وهي تقفز في مكانها لتدفأ، وتبحث عنه بعينين قلقتين. وهب الهواء عنيفاً، فبدا لها غريباً ذلك السكوت، وجمود ما حولها.

كانت معدتها خاوية، فتوجهت صوب شجرة التفاح. وما كادت تبلغها حتى لمحت جدها ممدداً تحتها. تراه ينام؟ تجمدت مخنوقة الحلق: كيف ينام هكذا على أرض رطبة ومجمدة؟ وهرعت اليه خائفة.

كان نائماً على خاصرته، حافياً، مفتوح الفم كما في قيلولته.
تقدمت منه جيني، قلبها يضرب ذعراً، ونادت من جديد:

-جدي... هل تنام؟

انحنت عليه، لمست وجهه، وذعرت أكثر، فنادته صارخة وهي تهز بكل قوه:

جدي... جدي... أرجوك.... أجبني. قل كلمة واحدة.

وارتمت عليه صارخة مفجوعة:

-لا... لا... لا...

كان جسد العجوز بارداً... خرجت منه الحياة.

نهضت ملتفتة حولها كمن تطلب مساعدة.

ردت بصوت خافت: «مات». ولم تفهم. ألصقت أذنها بصدره: منذ كم من الوقت تراه هنا؟ جلست الى جانبه طويلاً، مبعدة عن وجهه الذباب الحائم عليه. وأخذت تداعب شعره.

بدأت تحفر تحت شجرة التفاح لتدفنه في مكانه الأحب. بدأ العرق يتصبب بين كتفيها، واحست بيديها تؤلمانها. فتوقفت قليلاً لترتاح، ثم تناولت قطعة خشبية وعادوت الحفر. لكنها اكتشفت أنها لن تستطيع، من دون مجرفة، أن تفتح حفرة واسعة. فتوقفت. كثر الذباب الحائم على فم العجوز وعينيه. اقتلعت حفنة من العشب، ارتجلتها مروحة لطرد الذباب. كانت الشمس تقترب من الأفق. أحست بأنها ترتجف برداً وجائعة وعطشى. فقضمت تفاحة وارتوت بها.

عادت الى جانب جدها، في يدها باقة أزهار من الحقل، غطت بها وجهه وصدره. وطردت بها الذبابات الوقحة.

بعد لحظات صمت، تمتمت:

-وداعاً جدي... كنت أحبك.

وطبعت على خده الخشن المثلج قبلة أخيرة. وتوجهت صوب القرية.



٢٧

هرعت جيني تطلب النجدة من أقرب منزل.

حين سمعت السيدة بينوبير صوت ابنتها على الهاتف، لم تعاتبها ولا بكلمة. كل ما قالته لها:

ـ عودي يا صغيرتي. نحن بانتظارك.

وحين تلقت أمها خبر وفاة العجوز، تمتمت:

ـ مسكين... كنا أنقذناه.

وعادت جيني في أول حافلة، فيما رجال الشرطة حملوا الجثمان في عربة خاصة. وبسبب ظروف الوفاة، كان لا بد من التشريح. وجاء في التقرير: «كارل بينوبير، في الثالثة والثمانين، كان مصاباً بالسرطان في حلقه، وبالتهاب شعبي مزمن». أما سبب الوفاة المباشر، فحدده التقرير بحزم: «مات من البرد».

جرى الدفن في كتمان وهدوء.
كل من في البيت كان لطيفاً مع جيني. وألمحت لها غيل:
ـكم تكونين قد خفت.
واحتمل والداها صمتها وذهولها ونوباتها العصبية وبقاءها أياماً في غرفتها. لم يكن أحد يذكر جدها في حضورها. وكلما تحدثت هي عنه، يؤول الحديث الى تحوير. وذات يوم علقت غيل بأن اختفاء جدها وظرف وفاته يشيران بوضوح الى أنه بات خرفاً في أيامه الأخيرة. فعمد الجميع الى اسكات غيل. لكن جيني أحست بأن الجميع من راي غيل، فبادرتها أمها:
ـلا تفكري بكل هذا يا حبيبتي.
ولكن جيني لم تكن تنفك تجيل في رأسها ظروف وفاة جدها: انتظر حتى مرت العاصفة، فخرج حافياً وتمدد تحت شجرته المفضلة. متأكدة هي أنه فعل ذلك مدركاً عواقبه. لم يتصرف هكذا عن جنون أو ضياع أوخرف، بل عن كامل صفاء. لم يتبادلا الحوار صراحة، لكن كليهما كان عارفاً أن البقاء في المزرعة مستحيل. كان حلماً جميلاً إنما مستحيل التحقيق. لم يكن حولهما الا الخراب. وجدها وعى أنه أعجز من أن يرمم هذا الخراب. لذا، بدلاً من انقياده مستسلماً الى القفص. فضل التمدد تحت تفاحته المفضلة والاستسلام الى النوم. بل بالأحرى الى الموت. فهو لم يكن يخاف من تسمية الأشيا بأسمائها.

عادوت جيني ذهابها اليومي الى المدرسة. التقت رودا. عند عودتها، كانت تلاعب ايتيل وتكتب واجباتها المدرسية وتساعد أمها. يوم السبت، كانت تذهب الى السينما مع رودا. وعادت تستسلم ضاحكة الى مداعبات رفيقتها. وارتاح الجميع الى استعادتها طبعها. حتى أن أمها همست يوماً لأبيها:

ـخرجت من رأسها كل تلك القصة. صحيح أن ذاكرة الأطفال قصيرة.

فعقب السيد بينويير:

الحمد لله.

وغاب الكرسي الهزاز من البيت، وكذلك كل ما يمت بصلة الى العجوز. اشترى السيد بينويير تلفزيوناً ملوناً، وأعيد تأثيث غرفة السهرة بسجادة جديدة. عادت جيني وغيل الى المشاجرة، وحرم فرنكي من مصروف الجيب لنيله علامة سيئة على مسابقة الرياضيات.

و... عادت الحياة اليومية الى مسارها الأول.

ذات يوم، دعي السيد دوفايل وزوجته الى جولة لعب ورق، وهما صديقان قديمان لآل بينويير. مدت الطاولة في غرفة السهرة، وقدمت السيدة بينويير القهوة في فناجين جميلة.

مرت فاليري. حيت واختفت. فرنكي خرج الى الركض. غيل كانت مدعوة عند صديقة لها. وفيما كانت جيني تكتب دروسها، تناهي اليها بعض الحوار.

قال والدها:

صلب الارادة عنيدها. كان دائماً يقول لنا: «سأموت واقفاً». وها هو فعل.

ـفي أيامه الأخيرة. كان بدأ يخرف. وهذا طبيعي في الثالثة والثمانين.

علقت السيدة دوفايل:

ـ الثالثة والثمانين... سن جميلة.

عقب السيد بينويير باعتزاز:

ـ... ولا يضيرني بلوغها. إنما جيلنا يعمر كجيله. هل تجددان قطعة أخرى ثانية؟ هكذا حضرته أوريليا خصيصاً لمجيئكما.

سدت جيني أذنيها وبقيت أصواتهم تتناهى اليها:

-بلى... انطفأ وهو نائم. أحس بدنو ساعته. انها الغريزة. أي عزاء لنا أن يكون رحل وهادئاً من دون ألم!

شعرت جيني بضرورة الابتعاد كي لا تسمع أكثر. من تلك الأصوات التي تشرح الحدث بكلمات هامسة حزينة ا.ىغة. يجب عليها أن تبعد عنها هذا الحوار وكلماته الطنانة.

مسكين جدها...

هو الذي كان يأنف من الكلمات الطنانة، صادروا موته وجعلوا منه بطلاً. فعلاً: البالغون يخطئون كثيراً. إنه لم يكن بطلاً. لم يكن سوى.... جد طيب.

جدها «هي»، بكل بساطة.

دار ثقافة الأطفال
سلسلة مكتبتنا
قسم النشر

ا[redacted]ار

دار الحرية للطباعة
بغداد